محمد سعيد القشاط

مشاهدات صحفي

الجزء الأول





خالد علي بورقيبة

مشاهدات صحفي

محمد سعيد القشاط

مُشاهَداتُ صَحَفي

الجُزءُ الأَوَّل

الناشر
دار لبنان للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٣٩٥ هـ
١٩٧٥ م

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الإهداء

- إلى إخوتي وزملائي أسرة تحرير مجلة « الوحدة العربية » أول قراء لما أكتب ..
- إلى كل قلم شريف جرد للدفاع عن قضايا الأمة العربية ..
- إلى كل إنسان صادق مع نفسه ومع الآخرين ..

أهدي مشاهداتي هذه

محمد سعيد القشاط

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

السياحة في بلاد الله ضرب من ضروب العبادة .. فالسائح حيثما اتجه تقابله عظمة الخالق .. وجبروته .. في مهامه الصحراء وسكونها .. وفي امتداد البحر وزرقته .. وفي سكون الغابات ورهبتها .. وفي تعرج الأنهار وانسيابها .. وفي هدير الأمواج وصخبها .. وفي خضرة المروج وأزهارها .. وفي مجدب الأرض وموتها .. في تباين ألوان البشر وهم من فصيلة واحدة .. وفي اختلاف ألسنتهم وأفكارهم . تقابلك عظمة الله في كل شيء ، في اندفاع السيارة على أربع من العجلات دوارة .. وفي ارتفاع الطائرة فوق السحب ولا هادي يهديها غير ما سخر الله من ذلك القليل من العلم الذي آتاه للانسان .. وانسياب السفينة فوق اللجج العاتية في الظلمات الشاتية والناس في جوفها بينهم وبين الغرق سنتيمترات من الخشب ومع ذلك يبلغون غايتهم سالمين إلا من قدر الله ألا يصل.

لقد اطلعت على هذه الآيات العظيمة عندما قيض الله لي مهنة تحيا على

التطواف والتجوال .. وتجود بما هو جديد كلما ركبت سفراً جديداً .

وعندما نشرت هذه التحقيقات في مجلتي الوحدة العربية لم أكن أتوقع أن أنشرها في كتاب مستقل لولا حرص البعض من الزملاء على أن يطلع القارىء على ما اطلعت عليه في كتاب هو أبقى من مجلة سيارة .

وهكذا جمعت ثلاثة من التحقيقات حسب ترتيبها في السفر وجعلتها جزءاً أولاً وستعقبه أجزاء بإذن الله تعالى .

فمن السودان والحرب في الجنوب مستعرة .. ونحن نتجول في جنوبه تحت الحراسة ، إلى المانيا الديمقراطية بحمرها وبيضها وسودها إلى موريتانيا العربية التي نادينا بعروبتها قبل أن تعترف بها الجامعة العربية ...

ورغم ما طرأ على بعض المعلومات التي قدمتها من تغيير فقد تركت التحقيقات كما هي ساعة كتابتها دون أي تعديل أو تحوير حسب الظروف الراهنة . ليرى القارىء بعينه اللحظة التي تمكنت من زيارة البلاد التي أتحدث عنها .

عزيزي القارىء :

ان الكتابة لم تعد ترفاً .. ولا وسيلة ليطرد بها المترفون ساعات الملل .. وإنما هي معاناة والتزام وأهم وسيلة للوقوف مع قضايا الحق والتحرر ..

وفي هذا الكتاب ستشاهد الغبن الذي تعيشه أجزاء وطنك العربي ، والتباين الذي تعيشه أمتك من شط العرب إلى مصب نهر السنغال .. آلاف من البشر يموتون من أمراض التخمة .. وملايين يموتون جوعاً في سنوات القحط والجفاف التي تتقاطر متتابعة على أجزاء عزيزة من وطنك العربي .

لقد شاهدت ذلك وعشته ، ووقفت أمام عشرات البوابات العربية

أقدم جواز سفري مع الانجليز والطليان .. وتفتش أمتعتي أكثر مما تفتش أمتعتهم ..

وقد احتجت إحدى الدول العربية رسمياً عن طريق خارجيتها لأنني في نظرها ضبطت متلبساً بجريمة حوزة بعض الأعداد من مجلة الوحـــدة العربية أعطيتها لبعض القراء العرب داخـــل ترابها .. واحتجت دويلة أخرى عربية رسمياً أيضاً هي الأخرى لأن أجهزتها الجبـارة تمكنت من العثور عليّ متلبساً بجريمة الحديث في الوحدة العربية مع بعض الشباب الذين شاء سوء طالعهم أن يكونوا في ترابها .

وجلست في مؤتمر صحفي يضم أكثر من أربعمئة صحفي من مختلف بقاع العالم كنت الوحيد من بينهم الذي جاءوا إليه بجهاز كشف الألغام حفاظـاً على أمن ذلك الرئيس الذي لا يساوي في نظري ثمن لغم ..

كل هذه المضايقات وكل هذه التحرزات شهدتها في وطني وبين أهلي الذين مزقتهم الزعامات والمطامع ..

أما لماذا حدث هذا ..؟

فالجواب :

لأنني أرأس تحرير مجلة تدعى الوحدة العربية ، وهذا الاسم يخشاه جل حكام العرب وبالتالي جميـع من يشتغل في تحريرها لا شك انه خطر وجب الاحتراس منه .

عزيزي القارىء :

ان المستقبل بيد الله وهو وديعة في يد الأجيال القادمة ، نأمل من الله تعالى

أن يحققوا ما عجزنا نحن عن تحقيقه.. وأن يجمعوا شتات هذه الأمة المغلوبة على أمرها . وإلى أن يحين ذلك ، أدعو لك بالتوفيق ..

محمد سعيد القشاط

طرابلس الغرب

١٩ يوليه ١٩٧٤


السودان
فبراير ١٩٧١

الحديث عن السودان حديث شيق ممتع جميل لا يمل الانسان سماعه ولا يمكن أن يلم المتحدث بكل السودان .

عندما أبلغني الأخ رئيس التحرير بالسفر للسودان وطيلة عشر الساعات التي كنت أستعد فيها للسفر كان فكري منشغلاً بالسودان ... وبرسم خريطة لهذا البلد الشقيق وصورة كونتهـا من دراساتي عن السودان وبعض المعلومات التي يتلقاها الفرد منا عن منابع النيل العظيم في مراحل التعليم المختلفة ولكن شتان بين الصورة والأصل .. فنحن نعرف السودان الاقتصادي ولكننا لا نسبر غور السودان السياسي والسودان الاجتماعي والثقافي .

المواطن السوداني الطيب الشهم الكريم الخلق ... المواطن العربي الأصيـل الذي تشعر منذ جلوسك إليه أنك تعرفه منذ ولدت ... المواطن القانع العامل في صمت ، الباسم في رضى ... المواطن الذي يعتز بنفسه وعروبته لدرجـة العبادة..والذي قد يفضل المبيت على الطوى على أن يمد يده لإنسان يستجديه ..

أقلعت الطائرة بنا من مطار طرابلس إلى أرض الكنانة حيث أمضينا ليلة نترقب صباحها لمواصلة السير وفي الصباح استقليناطائرةالخطوط الجوية للجمهورية العربية الليبية حيث كان يخاطبنا مضيفاتها بكثير من العنطزة والأبهة ، الأمر الذي جعل الكثير من إخواننا العرب يحتجون علينا ويلوموننا على تشغيل مثل هؤلاء المضيفات « غير العربيات » .

سارت بنا الطائرة على نهر النيـل العظيم فكان يتعرج تحتنا خطاً أزرق في متوازيين من الخضرة ، وسط الصحراء بلون الشفق يحجبه السحاب تارة ، ويبرز

تارة أخرى .. وعلى شمالنا تلوح سيناء تذكرنا بجرحنا الدامي فمنّا من غض الطرف في ألم .. ومنا من شرد في تخيلات إلى المستقبل الذي لا يزال بيد الله وربما يكون مشرقاً .

نزلنا في مطار الخرطوم ، وهو مطار أنيق نظيف ، والجو ربيعي الملامح ، والوجوه السمر الباسمة تتلقانا في غبطة .. فكأننا عائدون إلى الأهل بالسودان لا قادمون إليه كضيوف ...

كان الأخ مندوب وزارة الإعلام في استقبالنا .. والأخ أبو بكر السكرتير الثالث بسفارتنا بالخرطوم ؛ ونزلنا على الرحب والسعة ، كان الفندق الذي اختير لإقامتنا هو (الفندق الكبير) يقع على ضفة النيل الأزرق في شارع النيل .. وهو أجمل شارع بالخرطوم ، أشجار تتعانق .. والماء خلفها ينساب في هدوء يفصلنا عن جزيرة (توتي) التي تطوقها شعب النيل الأزرق كما يطوق الولهان وجه أمله الصبوح .. وينساب النهر ليلتقي – بعد أن يجتاز فندقنا بقليل – بالنيل الأبيض .. فيتعانق النهران في صمت حالم دون ثرثرة وضجيج مكوّنين نهر النيل العظيم الذي يمكن أن يكون – لو أحسن استغلاله – شريان الاقتصاد العربي .

الخرطوم المثلثة

والخرطوم ليست كما يتوقع المرء مدينة واحدة ولكنها ثلاث مدن ..

الخرطوم : وهي التي تقع بها معظم الدوائر الحكومية والقصر الجمهوري والسفارات .

وأم درمان : ويربطها بالخرطوم جسر على النيل الأبيض وتقع بها دار الإذاعة والاذاعة المرئية والمسرح والأسواق المحلية وأسواق الصناعات التقليدية.

وخرطوم بحري : وهي المدينة الصناعية ويربطها بالخرطوم جسر قديم .. بني بجواره جسر آخر لتخفيف الضغط على الجسر القديم وسيفتتح رسمياً يوم ١٩٧٢/٣/٩م. من قبل الأخ « جعفر النميري » رئيس الجمهورية ، ولقد كانت السيارة المقلة لمندوبي مجلة الوحدة أول سيارة تسير فوق هذا الجسر من غير سيارات العمل .. فالسير ممنوع على الجسر قبل افتتاحه .. كما يربط خرطوم بحري بأم درمان جسر آخر على النيل يسمى جسر (شمبات) .

السوق المحلي

نزلنا للسوق في أم درمان وكان سوقاً عربياً بمعنى الكلمة تسير فيه وكأنك في أحد أسواق طرابلس الغرب أو بنغازي أو القاهرة أو دمشق أو تونس .. غير أنك تجد بعض المعروضات « فتنكرها » وتسأل عنها ويكون الجواب ، فتضحك من نفسك كيف لا تعرف هذا ..؟

الذرة والويكة والكركدي

أكوام من الذرة تباع بمكيال أشبه ما يكون بـ (المرطبة) عندنا ولكنها بأسعار في متناول الجميع .. وترى صاحب الذرة يجلس جلسة بائع الشعير في طرابلس أو القمح في الجزائر ؛ ويتقدم المشتري ويشتري على قدر فلوسه والكيلة بـ (٢٤) أربعة وعشرين قرشاً .

وعرجنا على حانوت جمع أصناف المواد ووجدنا (القناوية) المجففة وسألنا عن اسمها في السودان ، فقيل لنا اسمها (الويكة) واسترعى انتباهنا نبات مجفف قاتم اللون فقلنا ما اسم هذا ، إنه لم يكن عندنا في الشمال ؟ فقال صاحب المحل علي محمد يحيى : هذا هو (الكركدي) يستعمل كمشروبات عندنا ويصدر

للخارج .. ونظرنا أحجاراً مكدسة فسألنا صاحبنا « علي محمد » فقال : إن هذا هو (العطرون) يستعمل لفتح الشهية للبهائم حيث يسقى لها نقوعاً في الماء .. فقلنا للأخ علي إن حيواناتنا هناك شهيتها مفتوحة ولكنها تبحث عن الأكل ، فضحك وقال : إن السودان يمكن أن يكفي حاجة العرب جميعهم من العلف فلماذا لا تشترون العلف من السودان ؟

فقلت له : سأرفع برأيك هذا لأهل الرأي في بلادي عسام يفعلون ذلك ..

وأثناء الحديث علم جار « علي محمد » ويدعى « الأمين شروم » بأننا من الجمهورية العربية الليبية فأقسم أن يسقينا مشروباً على حسابه وقد فعل واندفع يحدثنا عن ليبيا ..

قام من نومه وجد كومه

وقال الأمين شروم : لقد كانت ليبيا في السابق (قام من نومه وجد كومه) وهو مثل سوداني أي أن الليبيين قاموا من نومهم فوجدوا بترولاً متدفقاً لم يحسنوا التصرف فيه فقلت له : نعم قولك صحيح ولكن الآن بترولنا لكل العرب فضحك بطيبته السودانية وبساطته وقال : نعم ، نعم ، معلوم ... قال الأخ معمر هذا الكلام .. انتم الآن البلد الإسلامي الوحيد الذي يقف مع العرب والمسلمين . وتركنا الأمين وعلي يحيى لنتجول في السوق ..

حلوى القش

فتاة لم تتجاوز العاشرة جلست تبيع الحلوى أشبه ما تكون بالحلوى الشامية يسمونها «حلوى القش» وهي حلوى محلية يصنعها النساء اللواتي من أصل نيجيري في بيوتهن .

وعندما وقف أحد الحاضرين يشرح لنا كادت أن تحدث معركة وقد حمي النقاش لأن الرجل قال إن الفتاة التي تصنع الحلوى لم تكن من أصل سوداني .. وكان أحد أقربائها بالقرب منا فقام مدافعاً عن عروبتها وسودانيتها.. وهكذا ميزة العروبة أنها تدخل القلوب ولا تخرج منها .. لأنها مبنية على (من تكلم لغتنا فهو منا) ..

محلات ضمان الكيف

وشاهدنا في السوق لوحة كبيرة كتب عليها بخط جميل على واجهة أحد الحوانيت : « هنا محلات ضمان الكيف » .. وقلنا لأنفسنا لنستطلع مصدر هذا الكيف فربما نجد فيها ما لم نجده في غيرها من المحلات وربما أفادنا المتكيفون بما لم يستطع غيرهم إفادتنا به .. ودخلنا المحل ، فصعدت إلى أنوفنا رائحة التبغ النفاذة .. وإذا بالرجل يبيع الناس (النشوق) (النفة) في علب كبيرة يعبىء منها علباً صغيرة يناولها لمرتاديه وطالبي الكيف بدراهم معدودة .. فتذكرت بائع (النفة) في طرابلس ..

سوق الغنم

ومن السوق العام انتقلنا إلى سوق الأغنام وهناك وجدنا المئات من رؤوس الماعز والضأن تعرض للبيع بأثمان هي مرتفعة في السودان ولكنها زهيدة عندنا في ج.ع.ل. فالكبش الكبير لا يتجاوز ثمنه الثمانية دنانير .. وعندما أمسكنا بكبش من هذه الكباش نستطلع ثمنه أصر صاحبه على ألا يبيعنا إياه بأقل من ستة جنيهات وربع .. ولما قام الزميل أبو عجيلة الطبال بالتقاط صورة لهذا الكبش قال صاحبه : « صوروه وصوروا سيده كان وما أبيعه بأقل من ستة

جنيه وربع » وعلمنا أن في الجنوب لا يتجاوز ثمن الكبش جنيهين والبقرة خمسة جنيهات ..

سوق الاعمال اليدوية

وفي سوق التحف والصناعات اليدوية رجال أوقفوا سني عمرهم على صناعة التحف والقلادات والأواني الفضية ونحت التماثيل من الابنوس وسن الفيل ..

تحف تنتقل إلى جميع أنحاء العالم يزين بها الناس دورهم وصالوناتهم ولكنهم لا يعرفون أن هذه التحف وراءها أناس كادحون يسهرون الليل ويجلسون النهار في سبيل نحت قطعة من الابنوس أو من سن الفيل ، وأمام حانوت شيخ مسن يبيع التحف الفضية وينقشها وقفنا نسأله :

كم من السنين أمضاها في هذه الخدمة ؟.. فهالنا عندما علمنا أنه منذ خمسين عاماً يمتهن هذه الحرفة ، ولكنه ابتسم في اعتزاز وقال إن الهدايا التي تقدمها الدولة لضيوفها تشترى معظمها من حانوتي هذا ، ولكنك قد تستغرب إذا علمت أن القطعة الصغيرة قد يصل ثمنها إلى خمسين جنيهاً وقد تستغرق من العمل ثمانية أيام ..

سن الفيل ١٠٠ رطل

وأمام حانوت صانع آخر قضى في عمله ٣٧ سنة حدثنا عن رحلة خشب الابنوس من الجنوب حيث يجلبه الجنوبي ليبيعه بثمن بخس لتاجر الخشب الذي يوصله إلى المدينة حيث يتحول إلى تماثيل وتحف وقواعد للتماثيل ورقع للشطرنج وعصي جميلة وخيزرانات مرصعة بالعاج وبقرون (الجاموس) .

وسن الفيل القبيحة المنظر تتحول في أيدي هؤلاء الصناع المهرة إلى تحف من

العاج الرائعة فتنظف (بالقادوم) ثم يرسم عليها الشكل المطلوب بقلم من الرصاص « قطيع من الفيلة أو أزهار أو غزال أو مزهرية » ثم تحفر وتبرد بالمبرد ثم تصنفر بالصنفرة فتصبح جاهزة للبيع ، وثمنها يزيد على العشرين جنيهاً سودانياً .. ولما سألت أحد هؤلاء التجار عن كيفية شراء هذه السن ، أجابني : تشترى بالرطل ، وسن الفيل تتراوح بين ١٨ و٢٠ رطلاً ، ولكن هناك بعض أسنان الفيلة تزن مئة رطل .. وهذه تصنع من أسفلها الزهريات وهي مجوفة ولو علم المرء أن الفيل يحمل نابين من هذه الأنياب لاطلع على مقدار الجهد الذي يبذله الفيل في حمل أسنانه .

والسوداني لا ينسى كرمه حتى أثناء البيع ، فبعد أن تحدثنا للصانع « صالح فرحات » وبعد أن أقسم على أن يسقينا شيئاً في حانوته تنازل عن ثمن العصا التي اشتريتها منه ، ولما أقسمت أن يأخذ الثمن أخذه مكرهاً ولكنه أقسم أن يعطينا هدية من متجره رغم فقره والأسرة الكبيرة التي يعولها .. وحدثنا عن عدد أفرادها وكانوا ثماني بنات ، ولما أشرنا عليه بتشغيلهن ليساعدنه في العمل أجاب إن عاداتنا العربية تفرض علينا أن يشتغل الرجل وتستريح المرأة ، وأنا عربي ولازم احترم تقاليدنا العربية .. وأصر أن نعود إليه ثانية لأن الهدية ليست على « قد المقام » . ومن المعلوم أن المرأة في السودان تساعد الرجل في الأعمال اليدوية وتجد لمساتها على كثير من هذه الأعمال ..

ولكن المرأة السودانية تعمل في صمت وفي احترام تام وفي أدب جم وأنوثة فياضة .... وعندما طلبنا من إحدى الفتيات تصويرها مع الأعمال الجميلة التي صنعتها بيدها رفضت ذلك . واحترمنا شعورها وعملها في منطقة الظل ...

عند ملتقى النهرين

وقفنا مع مرافقنا عند ملتقى النهرين العظيمين .. النيل الأزرق ، والنيل



المرأة السودانية تساهم في دفع عجلة التقدم لمستقبل منتظر

الأبيض ... نشهد كيف تتم ولادة النيل العظيم ..

وقفنا نشهد اللقاء .. ما أجمل اللقاء .. النيل الأزرق الذي قدم من آلاف الأميال هناك من قمم جبال الحبشة يقطع السهول والأدغال ويسير في الصحارى .. يغري الأرض .. يدفعه شوق اللقاء المنتظر .. والنيل الأبيض الذي جاء من أوغنده .. وتجمعت شعبه من أواسط الأدغال .. وقفنا نشهد ميلاد الاتحـاد والتلاحم ، لم تمنع زرقة النيل الأزرق تلاحمـــه مع بياض النيل الأبيض فيسير النهران متوازيين لمسافة ليست بالقصيرة .. ولكنهما يمتزجان امتزاجاً يحسدهما النسيم عليه فيسري على صفحة الماء مكوّناً زرداً، ذلك الذي تغنى به « ابن عباد وزوجته الرميكية » في الأندلس :

صنع الريح من الماء زرد　　　أي درع لقتال لو جمد

وفي ظل دوحة من دوحات الزاوية التي كوّنها الملتقى جلسنا على «خيشة» جاد بها علينا صياد سوداني طيب .. يمتهن حرفة صيد السمك النهري .. قانع بما قسم الله له .. اتكأ على (مرفقه) وهو يحدثنا حديث صراعه مع النهر من أجل لقمة العيش .

ولما سألناه عن التماسيح وأنها تأكل الانسان أجابنا ببساطة : كان ذلك في القديم ولكن الآن ، نصطادها ونسلخ جلدها ونبيعه بخمسة جنيهـات أو عشرة جنيهات .

فقلت له : كانت التماسيح تأكل الناس والآن الناس يأكلون التماسيح ..

فرد بسرعة : لا ... لا ... نحن لا نأكل التمساح .. ولمـا سألته عن الجمهورية العربية الليبية أجاب :

أعرف الجمهورية العربية الليبية ولكنني (ما حصلتها) ويقصد لم يزرها ..

ثم سألته هل يوفر له السمك قوت عياله ؟.. فأجاب : إن موسم السمك المزدهر يكون في الخريف ، وأما بقية العام فنحن نحصل على القليل ولكن – الحمد لله – نأكل ما قسم الله لنا .

المتحف

وبعد قيام ثورة مايو اهتم السودان بتاريخه الوطني كنافذة على التاريخ القومي وجمع السودانيون آثارهم من شمال السودان وغربه ووسطه ، آثار السودانيين القدماء في أيام ما قبل الميلاد وبعده .. وقد افتتح متحف السودان في عيد الثورة الثاني في ٢٧ من مايو ١٩٧٠ .. وأنت داخل إلى المتحف .. وهو بناء أنيق جميل نظيف .. تتعرج بين ابنيته بحيرة صناعية نمت بها بعض النباتات الافريقية التي تشبه القصب .. والداخل يبدأ بمعبد قديم بناه الملك الفرعوني « رمسيس الثاني » عليه نقوش تخلد ذكرى انتصارات هذا الملك وفتوحاته في شمال الوادي وجنوبه .

وبعد هذا المعبد يجد الرائي معبداً آخر شيدته الملكة « حتشبسوت » ١٤٩٠ – ١٤٦٨ ق. م. ولما توفيت قام شقيقها الحانق عليها بتخريب ما بنته أختة الملكة التي سلبته الملك (كما شرح الدليل) ونقش نقوشه هو التي لا زالت تحتفظ برونقها وألوانها الطبيعية منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام ..

وبعد ذلك تجد معبداً آخر بناه الملك السوداني (تهارقا) هذا الرجل الذي استطاع أن يحرر السودان من النفوذ الأجنبي ويطرد الكوشيين من السودان .. وأن ينتزع السلطة من تحتمس ويتولى عرش مصر والسودان .. ولقد وجدنا في جناح المعروضات تمثالاً ضخماً لهذا الملك وخاتمه الذي يدل من اتساعه على ضخامة هذا الملك .

وفي وسط المتحف تقع هضبة صناعية صغيرة بني داخلها قبر لأحد أمراء النوبة بناه في وادي حلفا منذ عهد الملكة (حتشبسوت) ويعتبر أقدم قبر منقوش وجد في السودان .

وعندما تدخل إلى جناح المعروضات تجد اللوحات الجنائزية من المرمر

والجرانيت منذ ما قبل الميلاد وتمثالاً ضخماً للملك (تهارقا) وآخر للملك (انلاماني)حفيد تهارقا ٦٢٣ – ٥٩٣ ق. م. وألقاب هذا الملك منقوشة بالأحرف الهيروغليفية على ظهر التمثال عثر عليه في (البركل) كما تجد قبراً عظيماً صنع له.. برز في أعلاه نقش لوجهه وقدميه .. ونقشت على أسفل غطاء القبر نقوش لهـا معنى وهناك معروضات من الذهب الخالص والفضة .. خواتم ، عقود لا زالت تحتفظ بروعتها وبريقها ونضارتها..بعض الأواني الفخارية والفضية والنحاسية.. ورؤوس الفؤوس والخناجر والسيوف ..

ومما يدل على رفاهية السوداني القديم سرير من الخشب وجـــد في مقبرة (بكرنه) وزوج من النعال ، مصنوع من الجلد وزوج من مراوح ريش النعام.. ويصنفها المؤرخون المشرفون على تنظيم المتحف فيما بين ٢٠٠٠ – ١٥٨٠ سنة قبل الميلاد ...

كما لاحظنا من بين المعروضات مقص شعر من اللؤلـــؤ وأسورة من المرمر ومرايا من البرونز .

وإذا اعتبرنا أن هذه الاشياء من صنع الانسان القديم.. فلا بد أن أن تعرض أيضاً جمجمة لهذا الرجل القديم .. فمن بين المعروضات جمجمة يرجع عهدها فيما بين ١٢٠٠٠ – ٨٠٠٠ ق. م. ... ولقد استطعنا أن نتجول في هـــذا المتحف قرابة ثلاث ساعات ونحن الوحيدون الذين سمح لهم من بين المجموعـة المتجولة ذلك اليوم بالتصوير داخل المتحف..وقد كان ذلك من كرم السودانيين أيضاً..

وقد شاهدنا داخل المتحف أناساً قدموا من بلاد الثلج ، من أقصى الشمال الأوربي ، واناساً قدموا من أواسط افريقيا ومن أقاصي بلاد الهند.. كما شاهدنا أيضاً السودانيين أنفسهم يتفرجون على تاريخهم العظيم .. وفد وقف شاب سوداني أمام تمثال الملك (تهارقا) يتأمله في إمعان ، كما وقفت السيدة السودانية وأولادها أمام العقود التي كانت تلبسها جدتها السودانية منذ آلاف السنين وخرجنا لنتجول في مناطق أخرى ..

جوبا

« عاصمة الاستوائية »

عندما حملتنا الطائرة من الخرطوم إلى جنوب السودان لم نكن ندري أنها تحملنا في نفس الوقت إلى القرن السابع عشر أو ما قبله بكثير ، فالمسافة بين الخرطوم وجوبا - عاصمة المديرية الاستوائية - هي ١١٣٠ ميلاً.. قطعتها الطائرة الصغيرة في أربع ساعات كاملة ، قضينا منها ربع ساعة في مطار (ملكال) - عاصمة أعالي النيل - للاستراحة ولكن المسافة الحياتية تزيد عن الثلاثة قرون بين الفرد السوداني في الخرطوم والفرد السوداني في العاصمة ، وقد يكون السودانيون الجنوبيون مسئولين عن ذلك التأخر بالتخريب الذي أحدثه التمرد المندلع منذ سبع عشرة سنة ، وقد يكونون غير مسئولين عن ذلك إذا علمنا أن بريطانيا العظمى هي سبب التأخر والتمرد أيام أن كانت عظمتها على حساب البسطاء والسذج .. وصلنا إلى جوبا وفي طريقنا من المطار إلى الفندق شاهدنا امرأة نصف عارية تستر نصفها الأسفل بقطعة صغيره من القماش فأثار منظرها استغرابنا واعتبرنا الموضوع في غاية الأهمية ..

ولكن عند تجوالنا في المدينة وضواحيها زال عجبنا عندما شاهدنا بعض الناس يسيرون عراة كما ولدتهم أمهاتهم بل وبصورة أكبر .. ان الناس في الغابة يعيشون عراة كأبينا آدم بعد أن أكل التفاحة .. لم تحاول بريطانيا طيلة حكمها في الجنوب أن تبذل بعض الجهد في إلباس الناس وتفهيمهم طرق الحياة المتعارف عليها في هذه الكرة .. بل أن بريطانيا كانت تمنع الجنوبيين الراغبين في الستر أن يلبسوا ملابس الشماليين حتى تجعل الرجل الجنوبي لا يكون إلا جنوبياً وأن ينظر للجنوب دائماً .. بل وأقفلت منافذ الحضارة على الجنوبيين وجعلت منطقتهم محرمة لا يدخلها إلا الانجليزي أو قسيس ينشر الدين المسيحي ، ولتقسم مناطق

الجنوب إلى مناطق نفوذ بين الكنائس ، ووجد الجنوبي نفسه بعد الاستقلال يسير في تيار من صنع الانجليز قضى على آلاف السودانيين الشماليين والجنوبيين على السواء وأضحت المديرية الاستوائية مركز التمرد أو الخوارج كما يسمون في السودان .. ففي شهر أغسطس عام ١٩٥٥ انفصلت الكتيبة الاستوائية عن الجيش السوداني (الانجليزي) آنذاك وأعلنت التمرد واستولت على مدينة (توريت) واستعادتها الحكومة بعد معارك دامية وسموا أنفسهم قوات (الانانيا)..

ومنذ ذلك الحين والجيش السوداني يدفع بكتائبه للجنوب .. وفي عام ١٩٦٥ م .. اندلعت نيران التمرد في مديرية بحر الغزال وعاصمتها (واو)..

ولعل هذا التمرد من الأسباب الرئيسية التي جعلت الحكومة عاجزة عن نشر التعليم في الجنوب فنسبة الأمية بين الجنوبيين مهولة جداً .. والناس يعيشون في بدائية لا مثيل لها وفي بطالة مطلقة ، فمزارع الشاي والبن والأرز التي استصلحت في يوم ما أحرقها المتمردون ، بل وقتلوا المزارعين الجنوبيين لرفضهم الانضمام اليهم .. وللقضاء على كل ما يربط الجنوبي بالأرض ويعين الحكومة في نفقاتها على الجنوبيين ...

المريسة .. والحشيش .. والرقص

ولعل هذه البطالة كان لها أكبر الأثر في تحول الناس إلى الخمور والحشيش والرقص ... ولعل المريسة هي شغل الناس الشاغل في الجنوب .. وتعمل بدق الذرة في (مهراس) كبير وتخلط بالماء حتى تضحي أشبه بالعجينة فتخمر .. ثم تجفف ، وتوضع في قدور وتطبخ .. ويزاد لها الماء حتى تصبح كالحساء ..وتجتمع القبيلة أو العائلة الكبيرة تحت ظل شجرة تتوسط الأكواخ ، وكل مجموعة لها قدرها ويظل الناس يشربون (بالمغرفة) كل يأخذ نصيبه .

وتبدأ جلسة المريسة من الساعة العاشرة تقريباً حتى بعد العصر ، وعندها يذهب كل إلى بيته ليستعد لسهرة الرقص أو حفلة السمر وبعد العشاء يحضر كل شخص آلة رقصه وطبله .. الرجال والنساء والأولاد والبنات ، وتقرع الطبول وتستمر حفلة الرقص هذه حتى آخر الليل ..

ونحن في الفندق كانت نسائم الليل تحمل الينا أصوات قرع الطبول المترددة في عتمات الغابة وأصوات الغناء النسائية والرجالية على السواء وصلصلة الأجراس المعلقة في الأرجل في إيقاع متحد جميل .. والحشيش أحد بقايا بريطانيا في المنطقة فهو غير ممنوع ويتناول علناً في الأسواق،وانك لواجد الرجل يحمل غليونه في فمه ويملؤه كلما فرغ وهو يتجول في المدينة ..

قبائل الاستوائية

يعد سكان الاستوائية (١,٣٥٠,٠٠٠) مليوناً وثلاثمئة وخمسين ألف نسمة منهم (٩٥٠٠٠) خمسة وتسعون ألفاً يتمركزون في المدينة (جوبا) .. وتنقسم القبائل إلى قسمين : « النيلية .. والفرتيت » وأهم القبائل « الزاندي .. والباريه » ويزيد عدد القبائل على ٢٣ قبيلة ..

ويتكلم الناس في الاستوائية قرابة ١٥ (خمس عشرة لغة) ..فكل قبيلة لها لغتها الخاصة ولهذا وجب وجود لغة واحدة مشتركة بدلاً من التخاطب بالاشارة .. فكانت هذه اللغة هي العربية غير المتقنة .. وانك لتسمع الجنوبي يتكلمها فلا تعثر فيها على كلمة سليمة .

لقد حاول الانجليز أن يضعوا بدلها الانجليزية ونجحوا في أوساط التعليم والمثقفين ولكنهم لم يستطيعوا بثها بين الناس في الشوارع ، فلقد هزم رجل الشارع المخطط الانجليزي .

الرعي والبقر

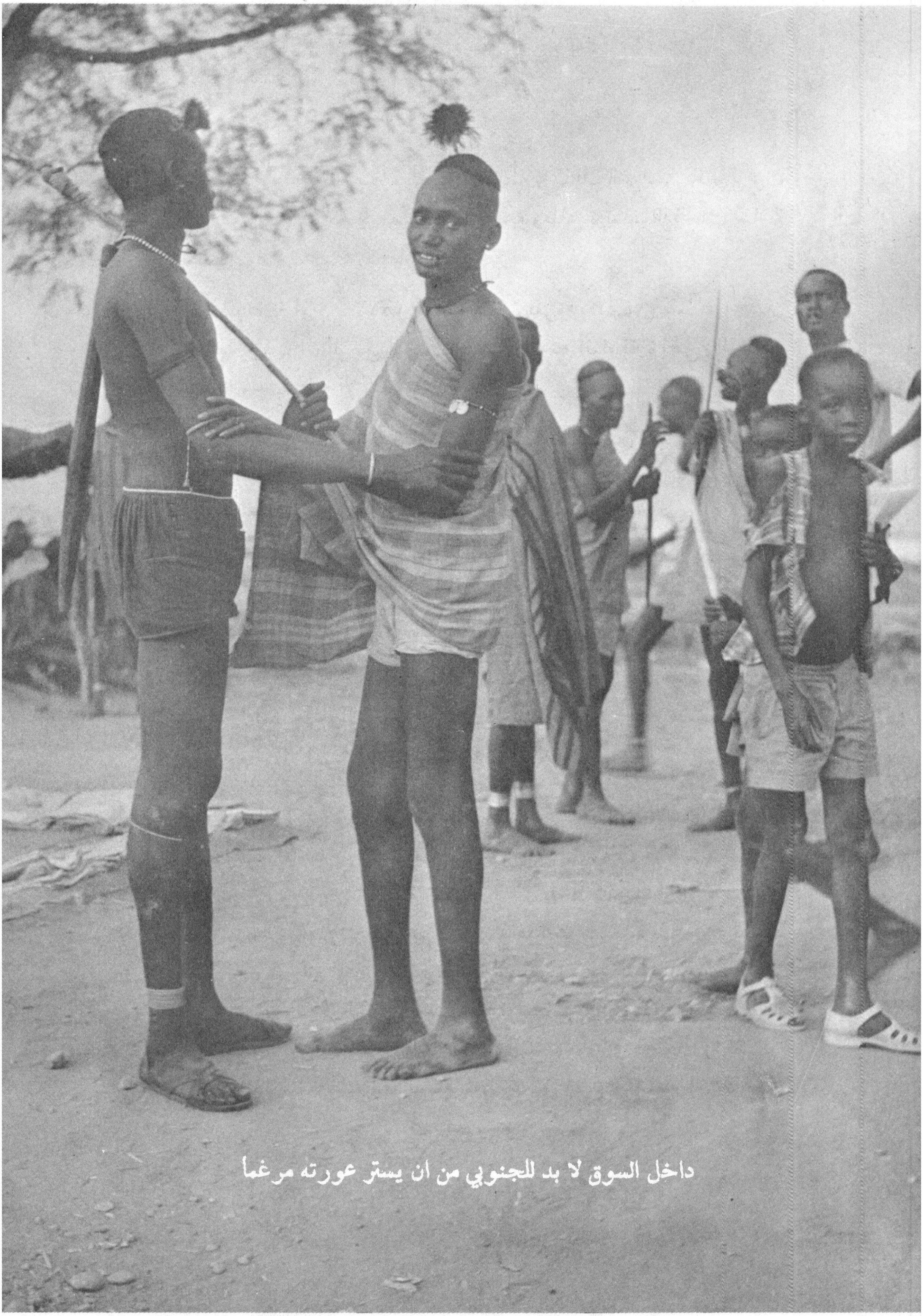
وفي السوق شاهدنا رجلاً يتزين بعقود الخرز المدلاة على صدره وظهره بكثرة ملفتة للنظر ، ويزين شعر رأسه بريشة .. ولما سألنا عن سبب هذه الزينة قيل لنا انها دلالة على الغنى الكبير .. وتقدمنا من الرجل لنأخذ معه صورة تذكارية فقام متثاقلا يدفعه زملاؤه للوقوف وهو يبتسم ويقول « فقير .. والله فقير .. » تواضعاً منه .

والرجل في الجنوب عامة يهتم بثروته البقرية أكثر من اهتمامه بأولاده ..حتى ان الرجل سمعنا انه قد يبكي إذا ماتت بقرته ولكنه لا يبكي إذا مات ابنه .. وعلى ذكر الميت فمعظم الجنوبيين لا يدفنون موتاهم وخاصة الوثنيين منهم .. بل يربطون الميت بحبل من رجله ويجرونه للغابة حيث يتركونه للوحوش كما نفعل نحن مع ميت الحيوان ..

وحتى يتأكد الجنوبي من ثروته البقرية يجمع البقر في أرض فسيحة ويشعل النار وسط البقر ويخرج من الدائرة،ويأتي إلى طرف البقر وينظر من تحت أرجله فإذا رأى النار فهو فقير ، أما إذا حجبت أرجل البقر النار عن الرؤية فلقد أضحى غنياً .. والبقر هو وسيلة التعامل في البيع والشراء والزواج والمهور وفي كل شيء ..

السلطان .. والزواج .. والمهور ..

ولكل قبيلة في الجنوب سلطان صاحب الكلمة المطلقة في القبيلة .. فهو الآمر الناهي فيها .. وهو يرث الحكم عن أبيه ويرثه ابنه من بعده .. والسلطان تراه يضع في أذنه أقراط الذهب وفي يديه أسورة من العاج من سن الفيل.. وعلى رأسه تاج من جلد النمر ويتزوج السلطان ٤٠ أو ٥٠ أو أكثر من هذا العدد من



داخل السوق لا بد للجنوبي من ان يستر عورته مرغماً

النساء ، وعند موته يرث أبناؤه الثروة والسلطة وكذلك النساء .. فالولد يرث النساء جميعهن ما عدا أمه ، ويصبحن أزواجه ، وظاهرة تعدد الزوجات مباحة للجميع وكل يتزوج على قدر أبقاره ..

فمهر المرأة يتراوح بين (١٥) خمس عشرة بقرة و (١٥٠) ومئة وخمسين بقرة ، وإذا عرفت أن الرجل الوثني لا يباشر زوجته أثناء فترة الحمل والرضاع ، عرفت لماذا وجب عليه الإكثار من الزوجات ..

وحتى الكنيسة راعت هذه الظاهرة فأباحت للمسيحيين الجنوبيين الزواج بأكثر من واحدة .

التعليم

لم يأخذ الجنوب حظه من التعليم طيلة أيام الحكم الانجليزي وسيطرت الكنيسة على التعليم في الجنوب .. فلقد كان التعليم مقتصراً على تعلم المبادىء الأولية للدين المسيحي واللغة الانجليزية .. حتى ان الطالب الذي لا يحضر صلاة الأحد في يوم من الأيام يطرد من المدرسة « بأمر القسيس » .

إذن فالتعليم في الجنوب كان بدائياً بسيطاً لغرض في نفس الانجليز تحقق لهم وهو تعليم اللغة الانجليزية .. وبعد استقلال السودان واندلاع التمرد حرقت جميع المدارس ووجدت الحكومة نفسها ملزمة بإنشاء مدارس جديدة في مجمعات كبيرة ليسهل الإشراف عليها .. ومع هذا سارت هذه المدارس في تعليمها على المنهج الجنوبي وهو المنهج الذي وضعه الانجليز ووجد السودان نفسه يقر منهجين للتعليم الأول في الشمال باللغة العربية .. والثاني في الجنوب باللغة الانجليزية .. ولكن بعد استلام السودان مقاليد الأمور في الجنوب وتسلمه للكنائس والمدارس من البعثات التبشيرية .. بدأ في تعريب المناهج في الجنوب .

عمكم أحمد حسن

الأستاذ أحمد حسن هو نائب وكيل وزارة التربيـــة والتعليم للمديريات الجنوبية .. تولى العمل في هذا المجال منذ ست سنوات .. وعندما زرناه قدم لنا نفسه : (عمكم أحمد حسن) وفي الحقيقة انه الرجل الذي يستحق أن تشاد له التماثيل في كل البلاد العربية لأنه قدم للعروبة أعظم ما يقدمه المرء ألا وهو تعريب الجنوب ..

فلقد قاد مرحلة التعريب بكل نجاح في مناطق تجهل العربية وتكره العرب وبين أطفال لا يعرفون كلمة واحدة من هذه اللغـــة وحين فشل الكثير من تجارب التعريب في بعض البلاد العربيـة مع وجود رغبة الطلاب في تعلمها والدراسة بها .

وعمنا أحمد حسن بدأ التعريب بالمرحلة الابتدائية السنة الأولى فالسنة الثانية فالثالثة ..

وهكذا مع استمرارية المنهج الجنوبي في الفصول العليـا وكل فصل يعرب يدفع بالفصل غير المعرب إلى أعلى حتى أصبح الآن من بين « ٦٠٠,٠٠٠ » ستمئة ألف طالب في الجنوب « ١٠٩٥ » ألف وخمسة وتسعون طالباً يدرسون المنهج الجنوبي .. والباقون يدرسون المنهج القومي ويجيدون العربية نطقاً وكتابة ، بل ان الأوائل في معظم الفصول من الجنوبيين ..

وإذا استمر هذا الحماس في التعريب فلن يمر عام ١٩٧٥ إلا وجميع المراحل التعليمية في الجنوب تدرس اللغة العربية بل وتضحي اللغة العربية هي صاحبة السيادة في المنطقة كما نص اتفاق الحكومة السودانية مع المتمردين في مباحثاتهم الأخيرة ..

ويقول الأستاذ أحمد حسن :

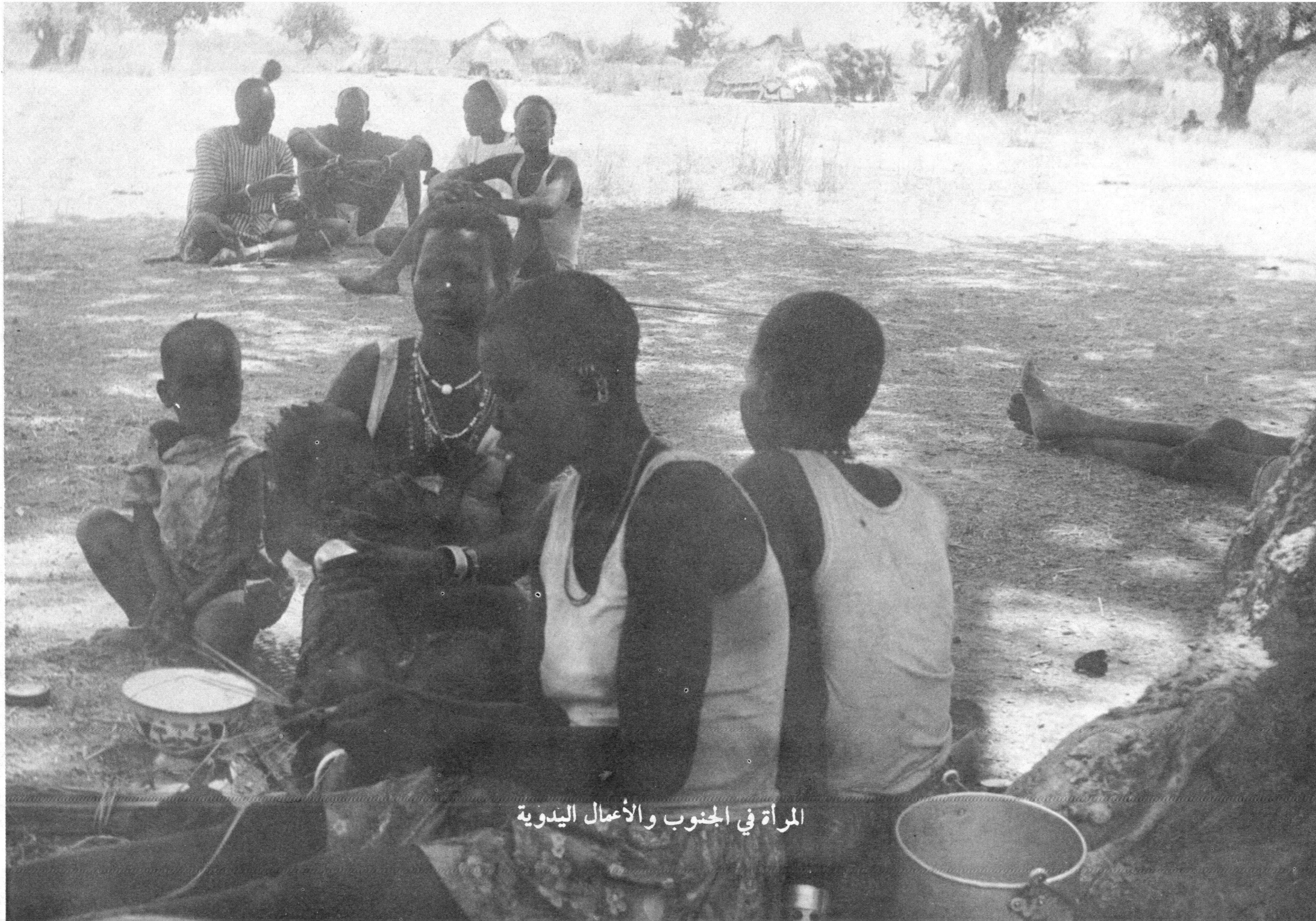
لقد نفذت هذه الخطة في صمت ، ولقد خلا لي الجو لتنفيذها لانشغال رجال السياسة بالتطاحن على الكراسي وتطلعاتهم للسلطة .. وليس لي أي طموح سياسي يشغلني عن مهمتي التي اخترتها، وان أعظم شيء أتحصل عليه في حياتي هو سماعي للغة العربية تنطق في الجنوب بدون (تكسير) .

وإحلال المنهج القومي محل المنهج الجنوبي الذي أقره الانجليز .. ان عمنا أحمد حسن هو مثال الرجل العربي الشهم الذي يخدم أمته في صمت وما أحوجنا إلى أمثاله في مغربنا العربي ومشرقنا العربي ليعيد للعرب اعتزازهم بلغتهم .. وهو معجب جداً بالخطوات التي اتخذت في الجمهورية العربية الليبية لإحلال اللغة العربية مكانها اللائق الذي تستحقه بين أبنائها .. والطلبة في الجنوب لا يستطيع أي إنسان أن يعطيك الرقم الصحيح لعددهم .. وما الرقم « ٦٠٠,٠٠٠ » ستمئة ألف إلا رقم تقريبي فعودة اللاجئين جعلت بعض المدارس يزيد عدد طلابها أضعاف الأضعاف في العام الدراسي الواحد .

الملكية .. وكتور .. واطلع بره

خرجنا من عند عمنا أحمد لنتجول في مدارس جوبا المسماة بأسماء أحيائها... فحي الملكية .. وحي الكتور .. وحي اطلع بره .. هي من الأحياء الكبيرة في جوبا ، وبها مدارس للبنين والبنات الابتدائية ..

وفي مدرسة البنات « جوبا الاعدادية » وتسمى الثانوية المتوسطة ، شاهدنا البنات الجنوبيات والشماليات يدرسن جنباً لجنب وفي مستوى واحد .. وفي أحد الفصول وجدنا الحصة أدباً وكان الموضوع خطبة « الحجاج بن يوسف الثقفي » في مسجد الكوفة ولا أتصور الحجاج نفسه كان يتوقع أن تقرأ خطبته هنا لولا مجهودات الأستاذ أحمد حسن ..


المرأة في الجنوب والأعمال اليدوية

وفي فصل آخر كانت الحصة تاريخاً وكان الموضوع الدولة الأموية .. لقــــد داخلتنا الخيلاء ونحن نستمع إلى تاريخ بني أميــة يروى بين قبائل الزائدي في أواسط افريقيا .. وفي المدرسة قسم داخلي منظم بطريقة جميلة يحتضن بنــات الجنوبيين .. وبها مكتبة ولكنها فقيرة جداً بالكتب ، كما يضم القسم الداخلي نادياً يمارس فيه الفتيات هواياتهن المختلفة .. كرة الطاولة ، والشطرنج ولعب الورق ، وألعاباً أخرى مختلفة .. وملحق بالمدرسة مطبـــخ لتعليم الفتيات أصول الطبخ ولقد شاهدنا في المطبخ فتيات يطهين أحدث الأطعمة وألذهـــا باتقان وإبداع ..

ومعظم المدرسات شماليات وكذلك المدرسين والمدرسة بها (٣٠٠) ثلاثمئة طالبة نصفهن في القسم الداخلي وهي المدرسة الاعدادية الوحيدة للبنــات في الاستوائية ..

وللبنين أيضاً مدرسة إعدادية وبها (١٨٠) مئة وثمانون طالباً وافتتح بهـــا السنة الثالثة الاعدادي هذا العـــام وهي سادسة ست مدارس إعدادية في الاستوائية بنين ..

الخدمات الطبية

الخدمات الطبية في الجنوب بصفة عامة متأخرة جداً والأمراض منتشرة بشكل مخيف،والملاريا تعتبر من الأمراض المستوطنة وكذلك البلهارسيا ومرض النوم والسل إلى جانب عدم الوعي الصحي بين المواطنين وعدم سهولة المواصلات وتباعد الناس داخل الغابة وإيمانهم بالتداوي بالكي والأعشاب.. وفي مستشفى « جوبا » تحدثنا إلى أحد الأطباء المسئولين عن المستشفى وأوضح لنـــا مقدار الصعوبات التي يلاقيها الطبيب في القضاء على هذه الأمراض وصعوبة التطعيم ،

والناس يستحمون في النهر ويشربون منه ويصطادون ويلقون فيه بالفضلات أحياناً ..

ويسع المستشفى (٤١٦) سريراً .. ويفتقر المستشفى إلى طبيب عيون وطبيب أمراض باطنية ...

الشاي والبن والتبغ

ان منطقة الاستوائية هي من أصلح الأراضي الزراعية في الجنوب ، وقبل التمرد كانت مزارع البن تربو على ٤٥٠٠ فدان تشرف عليها الحكومة ولكنها خربت جميعها من طرف المتمردين ونزلت المساحة المزروعة بالشاي من ٢٠٠ فدان إلى ٨٠ فداناً .. وقضى التمرد كذلك على ٣٠٠٠ فدان كانت تزرع تبغاً .. وتم ترحيل مصنع السجاير الموجود بجوبا إلى الخرطوم لعدم توفر التبغ اللازم للتصنيع ، والحكومة حالياً تحاول إعادة المزارع السالف عهدها. والشرطة وكذلك رجال الجيش يشتغلون في الأراضي في قرى أسموها « قرى السلام » أعدت لاستقبال العائدين ..

« بتي »

« بتي » هي إحدى قرى السلام التي شيدها رجال الشرطة لاستقبال العائدين من التمرد ، وكذلك هناك مساحة شاسعة من الأرض الممهدة للزراعة تم إعدادها لتقسيمها بين الفلاحين الراغبين في الزراعة .. وفي الصباح أعدت لنا سيارة « لاندروفر » طاوية لنقلنا لهذه القرية تحرسنا ثلاث سيارات للشرطة من مباغتة المتمردين ، وسرنا في طريق غير معبد – والطرق جميعها غير معبدة مليء بالمطبات والمنعطفات وسط غابة شديدة التشابك نمت حشائشها على جنبات

الطريق بشكل يحجب الرؤية الأمر الذي حدا بالمواطنين إلى حرق هذه الحشائش لكشف الطريق .

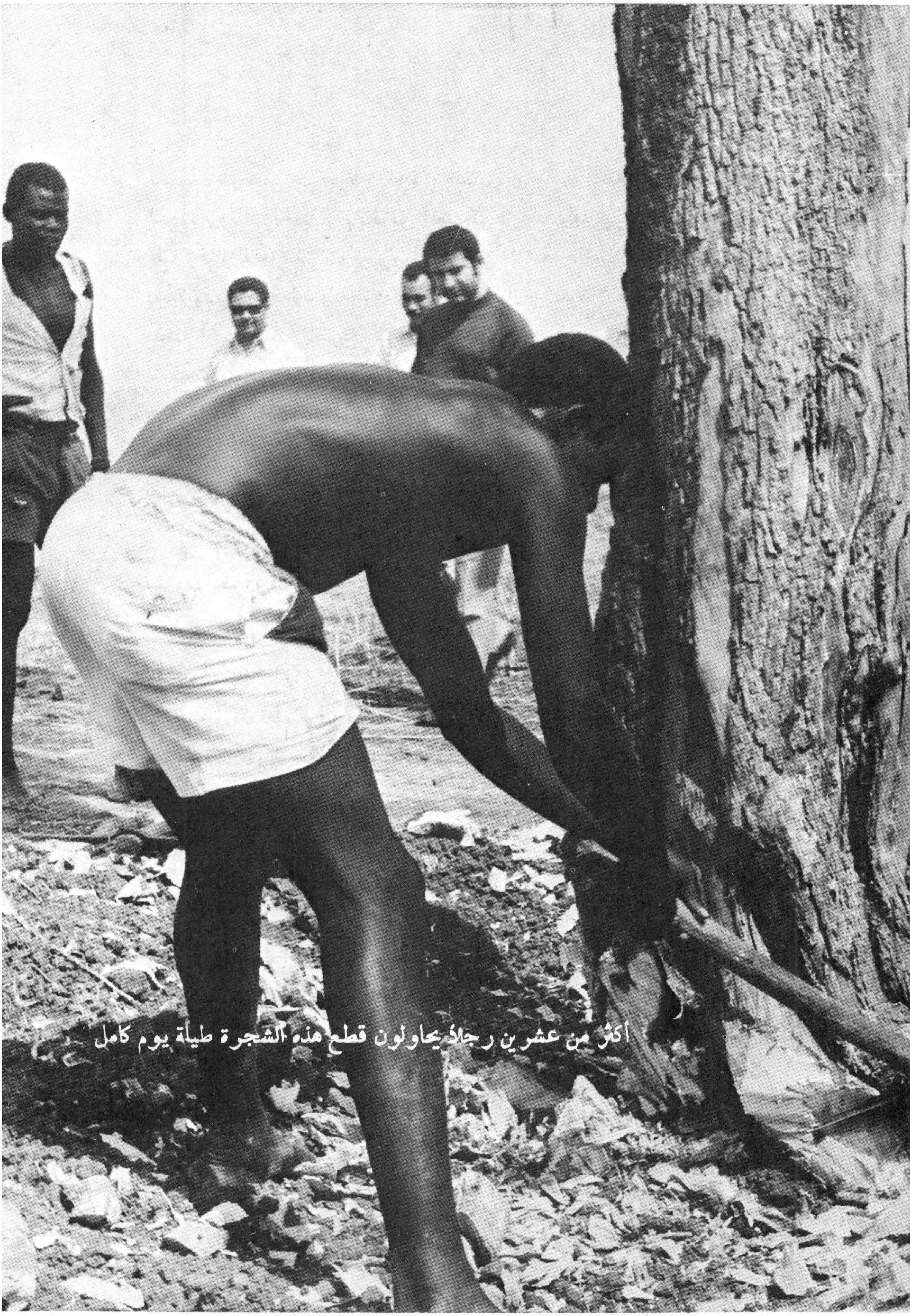
والمسافة بين بتي و (جوبا) ١٤ ميلاً .. قطعناها في ساعة كاملة .. ولما وصلنا القرية وجدنا الأهالي يشيدون أكواخهم لقرب عهدهم بالعودة ..والشرطة يشيدون مدرسة للتعليم كما يمهدون الأرض للزراعة ، ولما انتقلنا إلى المزرعة وجدنا أكثر من عشرين رجلاً يحاولون اقتلاع شجرة .. وقد كان إسقاطها هو عملهم الوحيد طيلة منتصف نهار ذلك اليوم .. وقد لامهم المراقب كثيراً ..

والجنوبيون بطبيعتهم ميالون للكسل نتيجة للحرارة المرتفعة والرطوبة ، وفي مثل هذا الجو لا يستطيع الانسان الاحتفاظ بنشاطه مهما حاول النشاط.. وعلى واجهات الأكواخ لاحظنا جماجم البقر معلقة ، ولما سألت أحد المواطنين عن السر أجاب بأن هـــذا للتبرك .. وفي كل كوخ شاهدنا قدر « المريسة » يغلي منتصباً لم نجد اثنين إلا وثالثهم قدرهم ولا ثلاثة إلا ورابعهم قدرهم يحمل في جوفه الطعام والخمر والخمول .. ولما سألنا رئيس شرطة جوبا عن الأمن أجابنا بأن حوادث القتل كثيرة وهي بمعدل ثلاثة في الشهر..وسببها النساء والخمر والمشاجرة على المرعى والبقر .. والسرقات كثيرة وإذا علم المرء أن الناس يعيشون في بطالة مميتة وجد العذر للذين يرتكبون جرائم السرقة ..

في القيادة الجنوبية

في مكتب الأخ عميد أركان حرب (عمر محمد الطيب) اطلعنا على مقدار الجهد الذي يبذله السودان في إخماد التمرد .. فأكثر من نصف الجيش السوداني دائم الإقامة في الجنوب والعميد أركان حرب عمر هو الذي قبض على المرتزق الألماني (شتاينر) .

وقد حدثنا عن خطته لتطويق المعسكر في محل اسمه (بورتو) ومعناه



أكثر من عشرين رجلاً يحاولون قطع هذه الشجرة طيلة يوم كامل

التجمع وهو يبعد عن جوبا (١٩٠) ميلاً .. وجاءت المعلومات للقيادة عن التجمع ورتبت الخطة وتم تطويق المعسكر بمن فيه وقد جرح شتاينر وتم القبض عليه وقدم للمحاكمة .. ومن يومها لم يسكن المرتزقة داخل السودان بل صاروا يسكنون على الحدود ويعطون الأوامر من خارج السودان ، وقال الأخ عمر : يشيع الخوارج أن المصريين ساعدونا وأن الروس ساعدونا.. والواقع أن جميع المعسكرات التي ضربت هي من تخطيطي أنا وتطبيق الجنود السودانيين .. والجيش السوداني في الجنوب يحارب الطبيعة أيضاً ، فالمنطقة الاستوائية تصبح مغمورة بالسيول والأوحال طيلة تسعة أشهر من السنة (من شهر ابريل حتى شهر ديسمبر) ومع هذا استطاع أن يثبت جدارته ..

والجنود يشتركون في العون الذاتي يبنون المدارس والمساجد والكنائس .. يشقون الطرق ، ويصلحون الأراضي .. إنه لمجهود جبار .

وفي ختام الحديث مع الأخ عمر قال : لولا مشكلة الجنوب لأصبح هذا الجيش له مكانة مرموقة في المعركة .

أرجو أن تطمئنوا إخواننا العرب على أن استراتيجيتنا متقدمة وأننا مسيطرون على الوضع « وأن إسرائيل لم تكن في القنال فقط وإنما نحاربها هنا في الجنوب » .

المتحف الحربي

وفي المتحف الحربي شاهدنا مئات البنادق والمدافع والقنابل والألغام التي غنمت من المتمردين .. ولقد قال الأخ العميد : إننا غنمنا من الأسلحة ما يكفي لتسليح لواء كامل .. ولقد وجدنا الكثير من الأسلحة التي غنمتها إسرائيل سنة ١٩٦٧م. والتي أمدت بها المتمردين ، وقد ضحك العميد وهو يعلق قائلاً : « هذه أسلحة العرب عادت للعرب » ..

وإلى جانب الأسلحة هناك عشرات النياشين والأدوية التي تمدهم بها الكنيسة في روما « الفاتيكان » وإسرائيل . ومن الغريب أن نجد أتباع المسيح في روما والذين صلبوا المسيح في إسرائيل يتحدون من أجل شل حركة العرب والمسلمين في السودان ..

الثروات الطبيعية

إن الله عز وجل لحكمة أرادها حبى منطقة جنوب السودان والاستوائية بصورة خاصة بثروة طبيعية لا تقدر بمال.. فالغابات الكثيفة من أشجار الصندل والابنوس والموز والمانجا والاناناس والنباتات الاستوائية التي تصلح للمرعى .. جميعها تنمو متشابكة متكاثفة تحجب الرؤية وتجعل المنطقة من أغنى مناطق العالم بالأخشاب لو أحسن استغلالها .. ولقد أقيمت بعض المصانع لتصنيع الخشب وصنع الكراسي وأثاث البيوت وأخرى لتعليب الفاكهة في (واو) — عاصمة بحر الغزال — وإلى جانب ذلك هناك الثروة الحيوانية فإلى جانب الملايين من الأبقار التي تربى من أفراد القبائل تقدر أعداد الحيوانات البرية في الاستوائية وحدها بـ (١٠٠٠٠٠٠) مليون فيل و (٣٠٠٠٠٠٠) ثلاثة ملايين جاموسة و (١٠٠٠٠٠٠٠) عشرة ملايين من حيوانات أخرى كالغزال والحمراية ووحيد القرن والأسد والنمر والفهد والقرد والنعام والزراف وغيرها ...

وان هذه الثروة كفيلة بإقامة عشرات المصانع لتعليب اللحوم ودبغ الجلود وتصنيعها وصناعة التحف من سن الفيل وريش النعام ..

ولو حوفظ على هذه الثروة من الأمراض لأدت إلى ازدهار المنطقة ولجاء هواة الصيد من مختلف بقاع العالم لإشباع هوايتهم في الاستوائية عند استتباب الأمن .. والناس في الاستوائية لا يزالون يرددون برقية الشرطة عندما أرسل أحد المحافظين صياداً ليصطاد له الفيل وبدلاً من أن يقتل الرجل الفيل حدث

العكس ..

فأرسلت الشرطة برقية للمحافظ تقول : « الرجل الذي بعثته يقتل الفيل قتله الفيل » .

الفنون الشعبية

الجنوبيون مغرمون بالرقص والغناء ، وكما ذكرت أن الوقت الذي يقضيه الجنوبي في الرقص أكثر من الوقت الذي يقضيه في العمل بكثير ..

وفي إحدى الأمسيات أقامت لنا مديرية الإعلام حفلة رقص تبارت فيها الفرق .. وكانت حفلة شيقة أخذت الطبول فيها غايتها من القرع .. والطبول مصنوعة من جذوع الأشجار حيث جوفت وربط عليها جلد البقر لتقرع بقوة ويزداد صداها ..

والرقص يمتاز بالعنف والقوة .. والراقص في الكثير يضع في ساقيه الأجراس وحلقات من سن الفيل وكذلك في يديه وعلى رأسه قبعة من ريش النعام وهو نصف عار وعلى كتفه حزاماً من الخرز وبعضده شرابتين وفي يده حربة طويلة .. ومعظم المجموعة وجوهها معفرة بالدقيق أو بشيء يشبه الدقيق .. ويضربون أرجلهم بالأرض ويصيحون صيحات الحرب على قرع الطبل العنيف .

رقصة « لافيتا »

قرعت الطبول قرعاتها المعهودة .. دخل صف من الفتيات نصف عاريات ووقف المطرب يغني بلغة قبيلته والمجموعة تردد ، ونحن لا نعرف ما يقول ، كذلك معظم الحاضرين ، وزعيم المجموعة يرقص منفرداً ويمسك بيده قنينة ترمز للخمر .. وهو يعتبر سلطان القبيلة ، ويجانبه حارساه أحدهما يمسك قرناً ضخماً ،

والآخر يمسك بيده منشة وجميعهم يرقصون في عنف شديد ..

رقصة « ياي »

تقدمت مطربة « ياي » وهي فتاة سمراء تغني بصوت حاد ولو أن معظم الكلمات غير مفهومة ، ومجموعتها تردد « اللازمة » وبين الفينة والأخرى تنفجر ضاحكة بصوت عال جعل الجميع يضحكون معها ، والفتيات يلبسن ملابس عصرية زاهية .. وقارع الطبل طفل صغير لا يتجاوز العاشرة ولكنه رائع الإيقاع وفي خلف الصف من المتفرجين وقف معجب يصيح (سكره..سكره).

فرقة « تبوسا »

وتبوسا هذه إحدى القبائل الكبيرة والغنية أيضاً في الاستوائية .. دخل جميع الراقصين بأيديهم المنشات ودخل مع الفرقة نافخ البوق .. والبوق هذا طوله أكثر من ثلاثة أمتار .... والرجل ينفخ واقفاً والبوق متمدد معظمه على الأرض ، وصارت المجموعة تقفز في الهواء قفزات عالية وعلى إيقاع الطبول .. وعند نزولهم على الأرض يلوحون باحدى الأرجل في الهواء للخلف كأنهم يضربون بها شيئاً وهمياً ..

ووقف خطيب المجموعة يتحدث بسرعة وبكلام لم نفهم منه شيئاً إلا كلمة (مديرية جوبا) وانفرد كل رجل بامرأة يراقصها وعلى رأس كل رجل ريشة طويلة . واستمرت الرقصة قرابة نصف الساعة ثم خرجت المجموعة .. والرقصات في مجموعها رائعة ومتقنة ..

التراث الشعبي

لم تكن لقبائل الجنوب لغة مكتوبة ولهذا لم نجد لهم أدباً مكتوباً أو تراثاً

محفوظاً .... ولكن تاريخهم ينتقل من الآباء للأبناء عن طريق المشافهة .. وأشعارهم تعبر عن الحماسة والشجاعة ومعارك القبيلة كما لا تخلو من الغزل .. ومعيار الجمال عند الشاعر الجنوبي لا يختلف عن معيار الجمال عندنا إذا ما تجاهلنا الشّعر وبياض البشرة فهو يتغنى بطول القامة وبياض الأسنان وسواد العين كالبقرة ودقة الخصر ونهود الصدر وغيرها من معالم الجمال المتعارف عليها .

الأساطير

والأساطير في الجنوب لا تختلف عن الأساطير العالمية التي تروى بين جميع شعوب العالم ، غير أن الجنوبيين ينفردون ببعض الأساطير الخاصة بهم . فعند اجتماعنا ببعض المثقفين رووا لنا بعضها ، فمنها ما هو عندنا ومنها ما هو خاص بهم .. فمثلاً يعتقدون أن الله كان قريباً من الأرض والناس ، ولكن إحدى النساء جاءت تدق الذرة في مهراسها بعصا طويلة دفعت بها الله إلى أعلى..ومنذ ذلك التاريخ أصبح الله بعيداً عن الناس والأرض ..

ونحن إذ نسرد هذه الأسطورة نستغفر الله لروايتها .. وعندما حدثتهم عن أسطورة الخادمة التي علقت بثدييها في القمر .. ضحكوا وقالوا إن هذه الاسطورة تروى عندنا بنفس السرد ..

وعجبت للأمر.. من روى هذه الاسطورة في ليبيا ؟ وكيف اتفق سردها مع قبائل الجنوب ، التي لا تعرف العربية ؟.. أو من رواها في الجنوب ؟.. ولكنه التراث العالمي المشترك ...

الشجاعة

لا شك أن الجنوبيين شجعان بالفطرة .. ففي بعض القبائل يجرى للأطفال



قرية من الأكواخ في الجنوب وبجانبها الأخشاب المقطعة للتصنيع

امتحان الشجاعة كقبيلة « الدنكا » مثلاً .. فهذه القبيلة عندما يبلغ الطفـــل الثانية عشرة من عمره يؤتى به وتجمع بنـات القبيلة .. وتخلع له أسنانه الستة السفلى النابان والقواطع ويشق جبينه بالموسى أربعـة أو خمسة خطوط متوازية على طول جبينه حتى مؤخرة الرأس .. وتوضع النار بجانبـه حتى يطفىء الدم النار .. وهو لا يصيـح ولا يتوجع ، وإذا حدث وأن صرخ الطفل فالجميـع يضحكون عليه ولا يتزوجه أحد،ويبقى معرّة القبيلة وتبقى أشعار ذم الجبناء تغنى جيلاً بعد جيل ، والمرء يعجب بشجاعة الأطفال الذين لا يبكون وجلودهم تشق وأسنانهم تكسر بطريقة بدائية ..

وعندما يجتاز الطفل امتحان الشجاعة هذا يذبح له والده ثوراً ويولم لكل أفراد الحي ويصبح الطفل في عداد رجال القبيلة .. وقد يموت بعض الأولاد من النزيف ولكن هذه العادة صار العلم ينجي بعض الأطفال من قساوتها ..

وأخيراً ...

إن مستقبل الجنوب بيد الجنوبيين أنفسهم ، ولا نشك في أنه سيكون باسماً بعد أن تواترت الأخبار على اتفاق المتمردين مع الحكومة على إنهـاء القتال .. ولكن سيحتاج إلى مدة من الزمن وإلى كثير من الجهد وإلى مساعدة العرب للجنوب .

وفي حديثنا مع نائب محافظ الاستوائية قال :

نتمنى أن يساعدنا إخواننا في الجمهورية العربية الليبية بباخرتين نيليتين لنقل التموين من الخرطوم إلى جوبا ونكون بذلك قد تغلبنا على ٩٠٪ من مشاكلنا .. ووعدناه بنقل طلبه للمسئولين وها قد فعلنا .. كما نأمل من جميع العرب مد يد المساعدة للجنوبيين للتغلب على محنتهم التي يعيشونها .. فوكالة غوث اللاجئين لم تستطع أن تؤدي دورها كاملاً في المنطقة كما أنها لم تستطع من قبـــل مع

الفلسطينيين .. وأن طريقاً برياً يربط جوبا بالخرطوم يتعاون العرب في شقه سيغير وجه الجنوب إلى الأحسن وسيساعد على نشر الوعي والثقافة والتمدن بين الجنوبيين ..

إن العرب ينتظرهم دورهم المهم في المنطقة فهل تراهم فاعلين ؟ وهل تراهم جادين في مساعدة السودان على تعريب جنوبه ؟ إنا لمنتظرون ..

« واو »

(عاصمة بحر الغزال)

بعد ساعتين من الطيران .. نزلنا في مطار (واو) وكان مطاراً صغيراً غير معبد كجميع الطرق في الجنوب .. ولم يتوقع الإخوة في (واو) قدومنا ذلك اليوم فلم نجد سيارة تقلنا ، فتبرع أحد المواطنين بسيارته (الشحن) فنقلنا إلى (النزل) ..

أرض تشيب الغراب

وفي طريقنا إلى البلدة شاهدنا بل ولفت أنظارنا غربانها ، جميعها مبقعة بالأبيض ، فسألت صاحب السيارة مستغرباً :

« أغربان واو كلها شائبة ؟.. » فضحك الصديق السوداني الذي اشتعل رأسه شيباً وقال : « الأرض ده بتشيب الغربان والبني آدمين كان » وضحكنا جميعاً .. وسرح تفكيري إلى معاهدة كتبت بين أحد مشايخ الخليج العربي والانجليز قديماً كان أحد بنودها (تبقى بريطانيا في الإمارة إلى أن يشيب الغراب) .

في بيت الضيافة

لم يكن في (واو) وهي عاصمة المديرية أي فندق يمكن أن يقطنه السائح أو الزائر ، ولكن هناك بيت ضيافة يأوي إليه ضيوف المديرية القادمون من الشمال ومن غير الشمال على حساب الدولة .. ولكن أين يقطن السيـــاح أو المسافرون ..؟

هذا ما لم نسأل عنـــه في (واو) .. ويتكون هذا المنزل من عدة فيلات متجاورة بنيت في عهد الانجليز وتقع على مجرى نهر (الجور) — أحد فروع نهر النيل الأبيض — ويمكنك من غرفتك مشاهدة المستحمين في النهر دون أن يكلفوا أنفسهم عناء لبس ما يستر عورتهم .. وفي الضفـــة المقابلة يمكنك رؤية جلسة المريسة في ظل دوحة كبيرة غصت بالشاربين والرواد .

في مكتب مدير التعليم

كان صباح اليوم التالي معداً للتجول بين الدوائر الحكومية والمناطق الصناعية في (واو) وكان مكتب الأخ مدير التعليم أول مكتب تزوره البعثة..ودخلنا المكتب وكان مساعده في استقبالنا ، وجلس وجلسنا حوله نستمع إلى سير التعليم في المديرية الذي يحتاج إلى الكثير من العناية ، ومما أثار انتباهنا جماجم الحيوانات ذات القرون المسمرة في حائط المكتب.. هذه جمجمة غزال ارتفعت قرونه في الهواء .. وهذه جمجمة بقرة من نوع فريد لم أر قرون بقرة مثلها من قبل ، وهـــذه جمجمة جاموسة .. وتلك جمجمة حيوان لم أعرف انه يسمى (الحمراية) وهذا وحيد القرن يتربع بجمجمته في الحائط المقابل ..

وانتهت المقابلة وخرجنا من مكتبه لننتقل إلى حديقة الحيوان ..

في حديقة الحيوان

دخلنا حديقة الحيوان .. وهي حديقة صغيرة بهـــا بعض الحيوانات التي اصطيدت حديثاً من الغابة .. ثلاثة أسود لم تألف حياة القفص بعد .. تقفز في كل اتجاه .. متبرمة بالسجن ، جعل الناس من تبرمها فرجة ومن تضايقها لعبة فالتف حول قفصها الصغار والكبار يضحكون ويقذفونها بصغار الحجارة انها الحياة وسنتها يزدري بالعاجز كل عاجز ..

وفي جهة أخرى القرود بمختلف أنواعها تنط وتقفز ترضع أطفالهـــا تارة وتشاكس المتفرجين تارة أخرى .. وفي قفص منفرد هناك أم عامر (الضبـع) تجيء وتروح دائرة بجسمهـــا دون أن تلتفت ، والذئب والثعلب فرادى وجماعات ..

وفي عالم الطيور أشكال وألوان .. الطواويس والدراج والببغاوات وطيور الزينة ، وتشمخ بين هذه الجماعات النعامة بريشها الناعم الذي طالما ألهم الشعراء في بلادي بتشبيهه بشعر الغواني ..

مصنع الخشب

وفي واو عدة مصانع لتشذيب الخشب وصنع المقاعد والدواليب والكراسي وأدوات الزينة ، ولقد مررنا على بعض هذه المعامل .. ولقد وجدنا العامـــل السوداني الجنوبي يشتغل باتقان بعد أن رفعت الدولة أجره اليومي من خمسة قروش كان يتقاضاها إلى خمسة عشر قرشاً في اليوم .. وإذا علم القارىء أن ثمن كيلو اللحم في الجنوب ثلاثون قرشاً عرف مقدار ما يتقاضاه العامل .

وفي المعمل شاهدنا كيف تصنع الجمال من الخشب والتي تباع بثمن الجمل الحي

والزهريات والغزلان والفيلة وقواعد الطاولات والزينة ورماة السهام وحاملو الأقواس والرماح ، وأشياء أخرى عديدة يزين بها أهل الذوق غرفهم وصالاتهم في البلاد العربية وخارجها ..

وفي واو أربعة مناشير لنشر الخشب ومقرها الغابة والعمال يذهبون لإحضار الخشب المنشور لتشكيله في المصنع ..

مصنع تعليب الفاكهة

انه مصنع كبير .. تعلب فيه الفواكه بمختلف أنواعها .. يعلب الأناناس ومربى الأناناس والموالح والباميا والفاصوليا والقرع والطماطم والمانجا .. وإلى جانب ذلك فهو يعلب اللحوم حيث تذبح الأبقار على الطريقة الإسلامية ويدفع بها للمصنع فتخرج في علب معلبة هي غذاء تشتريه القوات المسلحة فيالسودان.. وفتحت لنا العلب لنتذوق إنتاج المصنع .. فالتهمناها جميعها حتى تركناها فارغة لنقول في النهاية أن انتاج المصنع جيد .. وكان الدكتور عمران عامر – طبيب الأسنان ورفيق البعثة – يشير إلى المواد التي تقوي الأسنان فكنا لا نعصي له أمراً في تناولها ..

ولقد وجدنا المصنع في فترة راحة ربما تطول لأنه يعتمد على ثمار الغابة ، وهذا غير منتظم فالمواد الخام اللازمة للتصنيع لا بد من التحكم فيها والسيطرة على إنتاجها حتى يستطيع المصنع مواصلة المهمة التي أنشىء من أجلها.. ويشرف على إدارة المصنع فنيون روس..فالمصنع أنشىء بناء على تعاون السودانوالروس باتفاقية قبل أن يضرب الحزب الشيوعي في السودان ..

معهد مايو

تركنا المصانع والتصنيع وتجولنا في المدارس.. وكان معهد مايو أول المعاهد التي استرعت انتباهنا .. عشرات من الطلبة الجنوبيين يتدربون على الصناعة والميكانيكا وهندسة الكهرباء والبرادة والسمكرة وغيرها من الحرف الصناعية الأخرى .. مجموعة من الطلاب يفكون محرك سيارة ويعيدون تركيبه..ومجموعة أخرى تتبع الدورة الكهربائية في السيارة ، ومجموعة ثالثة تصنع قطع الغيار الصغيرة وتبرد الحديد لتشكيله في أشكال هندسية جميلة مفيدة .. أصوات المطارق وهدير المحركات وأضواء الكهرباء واللحام التي تملأ المكان برائحة محببة لا تنهض بغيرها دول العالم الثالث .. انه معهد مايو الصناعي التجاري ..

داخل المدينة

(واو) هي عاصمة مديرية بحر الغزال ويسكنها مليون ونصف من المواطنين ومعظمهم من الوثنيين وقليل منهم هم المسلمون والمسيحيون و ٩٠ في المئة من السكان (دنكا) والدنكا هذه قبيلة كبيرة.. امتدح لي أحد أفرادها باعجاب دور الجمهورية العربية الليبية ورئيس ثورتها ، وكان يظن أن عدد سكانها قرابة الخمسين مليوناً .. ولما أجبته بأن عدد سكانها مليونان ضحك حتى بدت أسنانه البيضاء والفراغ الذي تركته أسنانه السفلى عندما تعرض لامتحان الشجاعة في صغره وقال :

واحد دنكا تكون جمهورية ؟.. يقصد انكم في العدد كقبيلة دنكا ، وكيف تمثلون جمهورية ؟!!

فقلت له : من أجل هذا نسعى إلى الوحدة العربية ..

ومدينة واو يربطها بالخرطوم خط حديدي ومن أجل هذا نجدها أحسن حالاً من جوبا ..

اشترينا الاشتراكية

وفي داخل السوق تجد المتاجر من الصفيح تبيع أشياء قليلة : عصا الخشب وأكواب الخشب وبعض الجلود والسمن .. وقطع القماش .. وهمس في آذاننا مرافقنا السوداني (مصطفى يونق ماجاك) قائلاً :

لعلكم تريدون أن تشتروا الاشتراكية ؟؟.. وأجبنا بنعم في تلهف لمعرفة هذه الاشتراكية التي تباع ، وأخرج التاجر في زهو شديد عقوداً متشابكة من الخرز قائلا .. هذه هي الاشتراكية. لقد صنعنا مثل هذا وقدمناها هدية للرئيس النميري عندما زارنا في العام الماضي ..

شيخ كريش

وفي المساء سمعت بأن المدينة لها شيخ يقطن بها وهو أحد الشيوخ التي تتحكم في القبائل فسعيت إليه .. وخرج لي من كوخه .. وأحضر لي كرسياً وأصر على أن أجلس عليه وجلس على سرير من الحبال قبالتي وطفق يحدثني عن قبيلته « كريش » والتي لم يكن عددها يسمح له بأن يكون ، سلطاناً ..

والشيخ عبد الله مرجان وهذا هو اسمه من المسلمين تحصل على وسام الشجاعة عام ١٨٩٧ ، من الجيش البريطاني عندما كان جندياً به وترقى إلى جاويش ثم نقل إلى شيخ قبيلة ..

وعمره الآن يقارب المئة عام ومع هذا فهو موفور الصحة وتزوج أخيراً من



السوق في واو

فتاة صغيرة لأن زوجته الأولى توفيت – رحمها الله – وقد كانت تصنع المريسة باتقان وتبيعها للناس.. ولما قلت للشيخ عبدالله : « ان المريسة هذه نوع من الخمر وهي حرام في الإسلام » أجابني :

وكيف يشربها النصارى ؟.. فقلت له لأن دينهم لا يحرم عليهم الخمر ..

وهنا ضحك في انتصار وقال : يبقى النصارى يشرب المريسة يقعد راسه.. والمسلم لا .. ما فيه إسلام يقول كده ..

ولم أتعب نفسي في إقناع الشيخ عبدالله لتبيين الحلال والحرام..فالرجل الذي أمامي هكذا عرف .. وعلماء الإسلام لا يريدون التعب في سبيل نشر تعاليم الدين .. وإلى أن يصلوا إلى الجنوب يكون الشيخ عبد الله بين يدي الله يشكو إهمال المسلمين العالمين توضيح الإسلام لغير العالمين ..

ووقف الشيخ يودعني ويريني كوخاً من القش شيدوه هذا العام لأداء الصلاة وتعاليم القرآن .. يعاندون به شموخ الكنيسة الكبيرة المجاورة ..

العادات .. والتقاليد

جلسنا في المساء مع مجموعة من النسوة هن من قبائل مختلفة اشتركن في التنظيم النسائي (الاتحـاد النسائي السوداني) حدثنا عن العرس والمهور والولادة والختان ..

ففي العرس تتقدم أسرة العريس من أسرة العروس للخطبة عند الموافقة لمن يقدم مهراً أكثر – يحدد المهر في قبيلة الدنكا بين ١٠٠ – ١٥٠ بقرة أما في قبيلة الزاندي فالمهر من ٣ – ٥ بقرات ، والأهل جميعاً يشتركون في جمع البقر للعريس .. كما يدفع العريس بقرة واحدة لأم العروس يسمونها بقرة (حليب) حتى تزور في المستقبل بيت ابنتها وان لم يفعل فلا تزوره.. كما يدفع



آنسة جلست في حياء تحدثنا عن العادات في الجنوب وبين القبائل

لزوج الأخت الكبيرة ١٢ بقرة و ٣ ثيران وكل بنت تتزوج يدفع زوجها لزوج البنت التي تكبرها هذا العدد .. وإذا حدث وان تزوجت الأخت الصغرى قبل الكبرى تدفع لها بقرة إكراماً لها حتى تطيب خاطرها ..

العرس

وفي العرس يلبس الرجـــال قبعات من الريش .. وتخرج العروس متزينة بأساور من سن الفيل والقلائد من السكسك (الخرز الصغير) وقطعـة من قماش تستر عورتها وفي رجليها أجراس للرقص ..

أما العريس فيلبس قبعة من الريش وحول وسطه جلد نمر وفي يديه ورجليه أساور من سن الفيل وتحمل العروس على أقدامها من بيتها إلى بيت العريس الذي يكون قريباً ..

ويستمر الرقص طيلة أسبوع كامل ويذهب معها اثنتان من قريباتها لإيناسها لمدة شهر أو شهرين والعروس إذا حملت لا بد أن تلد المولود الأول في بيت أمها ولا تتركها أمها حتى يرشد المولود وهي تعلمها كيفية العناية به ..

الولادة

عندما يأتي المخاض للمرأة تتجمع حولها النسوة وتأتي القابلة وهي عجوز في القبيلة .. وعندما يسقط المولود تقطع سرته ويلقى بها في أكبر المتاجر في المنطقة ليكون الولد غنياً .. أما (خلاص) المولود فتحفر له حفرة ويوضع معه التمر والذرة ويأتي الأطفال يقفون حول الحفرة ويضحكون ليكون الطفل في المستقبل (دمو خفيف) ثم تردم الحفرة ..

وفي اليوم السابع يسمى الطفل إن كان ولداً أما إذا كانت طفلة فتسمى في

اليوم الرابع وتبقى الأم أربعين يوماً لا تخرج من بيتها ولا تشتغل شيئاً .. ويخدمها في هذه الحالة أقرباؤها أو جيرانها ..

الختان

الختان في السودان جميعه تقريباً يجري بطريقة واحدة..فالأولاد والبنات يختنون جميعاً .. ولقد اطلعنا على بعض مقالات في الصحف السودانية أثناء اقامتنا هناك تندد بعادة ختان البنات وتدعو لترك هذه العادة ..

وفي الجنوب يحتفل بالختان فيذبح أهل الطفل ثوراً ويولمون له ويختن الصغير.. وفي اليوم السابع يركب على عربة أو أي حيوان ويحمل إلى النهر ويسمونه (البحر) حيث تغسل يداه ووجهه ورجلاه للتبرك .. وتوزع الحلوى على الأطفال إن وجدت أو التمر ويعاد إلى أمه التي تكون في ذلك الحين تنتظره بالكوخ .. والطفل أحياناً حتى الثانية عشرة أو أكثر ، لا يأكل الطعام وإنما يشرب حليب البقر ويرضع البقر أحياناً والقطيع في المرعى ولهذا نجدهم أقوياء البنية سريعي العدو .. يقفزون إلى مسافات عالية في رقصهم .. الأمر الذي سيجعل منهم أبطالاً في كرة الطائرة والسلة إذا وجدوا من يعتني بهم.

عشاء وسمر

وفي الليلة التي قررنا السفر في صباحها كنا في ضيافة المسئولين في (واو) حيث تعشينا في (النزل) وجلسنا نسمر مع الأخوة المسئولين والمثقفين في واو ، بعضهم جاء من الشمال للعمل في الجنوب ، وبعضهم من الجنوب تعلم في الشمال وعاد للجنوب .. يبذل جهده للنهوض بالمناطق الجنوبية ..

تناقشنا في الأدب الجنوبي وخصائصه واللغة واختلافها من قبيلة إلى أخرى والفنون الشعبية والتراث والقصص والأساطير .. وعرجنا على كيفية النهوض

بالجنوب و كيفية العناية بالثروة الحيوانية فيه إذ أن في مديرية بحر الغزال وحدها مليونين ونصف المليون من البقر .

وانفض السمر في ساعة متأخرة من الليل ونحن لم نشعر بمرور الوقت بين أخوة طيبين صرحاء .

وأخــيرا

وفي الصباح كانت الطائرة تقلنا إلى الخرطوم عن طريق (ملكال) وقد تركنا (واو) تستقبل مئات العائدين من أبنائها من حياة التشرد واللجوء بعد أن أعلن العفو العام عن المتمردين وقد كان وقتها الاتفاق لم يتوصل إليه بعد ..


عشرة أيام في
ألمانيا الديموقراطية
مايو ١٩٧١

كلما ورد اسم ألمانيا أو الألمان اقترنا في ذهني بالحرب العالمية الأولى والثانية..

حتى انني عندما حزمت أمتعني متوجهاً إلى ألمانيا الديمقراطية كنت أتخيل الشعب الألماني من خلال قراءاتي التاريخية عن الحربين والحرب السبعينية وعن بسمارك وشعب بروسيا الذي كان نواة الوحدة الألمانية ... وعن هتلر الذي ارتفع بألمانيا وهوى بها كما يهوي الصقر من عليائه ، وعن رومل الذي لا تزال بلادي تحتفظ في جوفها بالألغام التي زرعها فيها منذ ثلاثين سنة كنت أتصور الشعب الألماني وكنت أسرح في الخيال إلى « بيتهوفن وباخ » وغيرهم من عظماء الموسيقى .

وأحياناً عندما أتعب في العمل الصحفي كنت اشتم (جوتنبرغ) الذي لولاه لبقي الناس يحتفظون بمخطوطاتهم على الرق ، ولبقيت الصحافة عملاً لا وجود له ، ولاستفاد العالم من جيوش الصحفيين الذين يدسون أنوفهم في كل شيء ..

ركبنا الطائرة وقلوبنا بين هواجس الخير والشر ..

كان الجو شديد الغيوم .. والمطر يتساقط على مطار طرابلس .. والضباب كثيفاً فزادنا تجهم الجو عما في نفوسنا جهامة .

ارتفعت بنا الطائرة (كالعقاب) اخترقت لوابد السحب التي كانت تعترض طريقنا كالعهن المنفوش .. وما هي إلا لحظات حتى خرجنا إلى سماء أشد زرقة من سماء نعهدها ونحن على الأرض وحتى تراءى لنا السحاب الممطر الذي كان يمطر فوق بساطاً من القطن المندوف لا شك انه يمطر إلى تحت ،ولو لم يعد الإنسان إلى رشده لظن أنه لو قفز عليه لاستطاع أن يتقلب على لينه الخادع ، ولكنه

سرعان ما يعرف أنه منظر كظاهر المنافق يغرك مظهره فإذا اختبرته ظهر لك أسوأ ما يمكن أن يظهر عليه الانسان .. وناهيك إذا ما تعمقت في باطنه ..

أقلعت الطائرة من مطار بنغازي بعد أن نزلت كما تقتضي ظروف الرحلة وتخطيط المخططين لها ، وتأخرت عن اقلاعها قليلاً .. (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) فلقد لحق بنا زميلنا في الرحلة الاستاذ علي أبو زعكوك..

واصلت بنا الطائرة رحلتها أربعتنا : الأستاذ علي أبو زعكوك ، والأستاذ عبد اللطيف الشويرف ، والأستاذ نجم الدين الكيب ، (والعبد لله) ولم أكن رابعهم ولو أن الترتيب جاء كذلك ..

ثقبنا السحاب مرة ثانية وتكرر المنظر المغري الأول .. وكانت عيوننا مسمرة على لوحة الإعلانات التي لم يبخل قائد الطائرة بتركيبها وتزيينها بين الفينة والأخرى : (اربطوا الأحزمة) وهذه الجملة تعني عند قائد الطائرة أن في الجو غيوماً أو أن هناك عاصفة تعترض الطريق .. أو أن هناك مطباً هوائياً قرب الدخول فيه .. الخ ولكن الشيء الذي تعنيه هذه الجملة عند الراكب أن الطائرة تعطل أحد محركاتها ، أو أنها أصيبت بعطب أو أنها لا تستطيع مواصلة الرحلة ، وباختصار إن السقوط لا يفصلها عنه إلا دقائق معدودة .. وتتفاوت أصداء هذه الهواجس بين راكب وآخر .

فهذا انغمس يقرأ جريدة.. وآخر تظاهر بالنوم أو بالأحرى تناوم ..وثالث سرح يفكر في التزاماته على ظهر تلك الأرض التي يفصله عنها البساط الخادع .. وآخر انشعل بالتسبيح والتشهد سراً .. أما أولئك الذين غرهم الشيطان على ظهر الأرض فها هم يعبون كؤوس الخمور (ولله في خلقه شئون)..

في القاهرة

هبطت بنا الطائرة في مطار القاهرة .. واندفعنا خارجها نطأ تراب مصر ضمن أفواج من البشر جاءت من كل فج عميق .. اختلفت ألوانهم وأفكارهم ولكنهم توحدوا في الوجهة ..

طائرة من وسط أوروبا ، وأخرى من وسط افريقيا ، وثالثة من أقصى الشرق ، ورابعة من أقصى الغرب ، هذه تحمل وفداً رسمياً ، وتلك تحمل مجموعة من السياح ، وأخرى تحمل فوجاً من الطلبة .. وجميعهم جاءوا إلى عاصمة الاتحاد ليقضي كل ذي مأرب مأربه ، وحقيقة قيل في المثل : (يا داخل مصر منك ألوف).

ووجدت نفسي وأنا أطأ أرض مصر ، أردد قول الأخطل الصغير :

مرحبا مصر مرحبا
كل أهل لك أهل
وكل صدر
محل
ليس تألو الرياض
أن توقظ الزهر
وأن تجمع الشذا
ليس تألو
لتريق الأريج
سكباً وتهتاناً
على وجه مصر

حين يطل

مرحبا مصر

يا شقيقتنا البكر

ويحلو ترديد مصر

ويغلو . . . . . .

دخلنا القاهرة وسط اجراءات جمركية ميسرة لنتجول في أنحائها إذ اننا سنواصل الرحلة إلى برلين بعد منتصف الليل .. وقد كان الوقت عصراً .. خرجنا إلى المدينة .. وفي كل مرة تزور مصر تجد الجديد وتجد الحديث فكأنك تراها لأول مرة كلما زرتها ..

دخلنا القاهرة .. شوارعها الفسيحة .. ميادينها الرحبة .. شعبها المرح .. آلاف المكتبات تصطف على جانبي الطريق تنشر الثقافة والعلم والهداية.. مئات المساجد تشمخ في اباء وشمم متحدية عوامل التخلف والسلبية، سامقة كمنائر السفن تحكي للعالم رسوخ الدين وعظمته .

دخلنا أحد المساجد لتأدية صلاة العصر فلم نجد موضع قدم للصلاة إلا بصعوبة .. شيوخ وشباب وأطفال جاءوا لتأدية صلاة العصر كما جئنا مؤكدين أن الباحث عن الشر أيضاً لا يعدمه في القاهرة (ولكل شأن)..

إن القاهرة كالفتاة العربية الكريمة التي تشمخ بأنفها في اعتزاز واباء ولكنها جريحة الكبرياء فلقد تقاعس رجال عشيرتها عن رد كرامتها التي جرحت من قبل عابر طريق دنيء .. فالنوافذ مطلية بالأزرق وكذلك مصابيح السيارات ، والعدو هناك خلف الأكمة .. هل ترى يسترد رجال عشيرتها غطاء رأسها الذي اختطفه ذلك العابر الدنيء ؟؟.. هذا ما تنتظره القاهرة وينتظره معها ملايين النساء العربيات اللواتي يحمّلن الرجال محو العار ورد الثأر..

الى برلين

كان اقلاعنا من مطار القاهرة بعد منتصف الليل في طائرة ألمانية تمخر عباب الجو عبر البحر الأبيض المتوسط الذي طالما عبرت أجواءه الطائرات الألمانية في الحرب الثانية تبث الرعب والدمار على الشاطىء الآخر.. كنا طوال خمس ساعات تقريباً معلقين في الجو تتقاذفنا الهواجس والظنون وأرواحنا بيد الله وبيد قائد الطائرة الذي كان كالنسر العائد إلى وكره لا يخفيه عنه الظلام الدامس ولا بعد المسافة .. كان البرق يخفق من تحتنا علامة لأمطار تهطل إلى أسفل من الوجه الثاني للسحاب وكان النجم القطبي يلوح في السماء جعله القائد وجهة طائرته لا يحيد عنه ..

كنا نتصور برلين من خلال قراءاتنا التاريخية مجموعة من الخرائب تركتها الحرب العالمية الثانية أو هكذا كنا نتصورها .. آلافاً من المواطنين المشلولين والمحطمين وفاقدي الأطراف .. مئات من العجزة الذين أقعدتهم الحرب عن مواصلة مسيرة التصنيع ..

ولكننا فوجئنا بعد وصولنا من أن معظم تصوراتنا كانت خاطئة .. فعند الصباح حومت الطائرة بنا فوق برلين عاصمة الجمهورية الألمانية الديمقراطية أو كما يسمونها اختصاراً (د. د. ر.) ..

كانت المدينة غارقة في الضباب عماراتها ترملها السحب، وذاك الضباب وتلك السحب هي التي كانت تحمي برلين من الغارات الجوية أيام الحرب الثانية..

كان كل شيء في برلين الحديثة ينم عن عظمة الشعب الألماني الذي استطاع أن يبني بلاده من الصفر ، فكما هو معلوم خرجت ألمانيا من الحرب محطمة الجانب مقطعة الأوصال ، ملايين البشر لا مأوى لهم .. وآلاف الأسر يفتك بها



مبنى الاذاعة المرئية الالمانية الشرقية يُرى كالوتد من بوابة (براندنبرج)

البرد والجوع بين خرائب المدن وأنقاض العمارات ..

دخلنا المدينة بعد اجراءات السفر .. أو بالأحرى دخلنا القسم الشرقي من برلين.. شوارع فسيحة ،نظيفة..وعمارات سامقة شاهقة متشابهةالبناء تضم آلافاً من الشقق وعشرات المداخل والطوابق،أحياء كلما سرت بينها ترى نفسك وكأنك تسير في حي متنقل .. ولكل عمال حي من الأحياء .. فهذا لعمال البنـــاء ، وآخر لعمال الطرق، وثالث لعمال السكك، ورابع لعمال المصانع، أما الموظفون فلهم أحياؤهم الخاصة وكذلك أهل الفن والأدب .. لقد شاهدنا هذه الأحياء من الخارج وقيل لنا أنها مقسمة على الشكل الذي ذكرناه .

ووسط المدينة يرتفع (كالمسمار) أو (الخازوق) مبنى الاذاعة المرئية يثقب السحب كالمنارة العالية .. كان الفندق الذي اختير لإقامتنا يتكون من سبعـــة وثلاثين طابقاً يقطعها المصعد الكهربائي في عشرين ثانية مندفعـاً كالصاروخ ، لو يقف فجأة أغلب الظن أنه يقذف براكبيه إلى السقف ، من شدة اندفاعه ..

كل شيء للدولة

كل شيء في برلين للدولة .. المصانع .. والمتاجر .. والمخابز ..والفنادق.. والمدارس .. وحتى الناس أيضاً للدولة ..

يدخل الناس في ساعات محددة لشراء ما يلزمهم فإذا دقت الساعة المحددة لنهاية العمل كان المشرفون على البيع أول الخارجين .. دخلنـا متجراً لنشتري أشياء معينة فجمعناها وتقدمنا بها لفتاة تحسب الثمن وتأخذه ،ولما وصلنا اليها دقت الساعة فلم تلتفت الينا بل نهرتنا لأننا لم نمتثل لأمر الساعة التي حددت الزمن. وخرجنا دون أن نشتري ما رغبنا شراءه وأعطينا للفتـاة العذر فهي لم تكن تملك المحل .. وهنا فقدت رغبة المنافسة والتملك ..

وفي يوم آخر اشتهينا بعض الفواكه المعلبة فسرنا نبحث عنها في متاجر المدينة .. ولكل متجر اختصاص .. حتى عثرنا عليها في واجهة أحد المحلات فدخلنا كعادتنا في الشرق نريد أن نشتري ، على عجل .. فأمرنا بالوقوف وراء صف طويل من البشر .. وامتثلنا للأمر ودفعنا الثمن بعد ساعة من الوقوف ولما سألنا عن آلة حادة لفتح غنيمتنا .. قيل لنا تجدونها في متجر آخر متخصص في بيع ما تطلبون .. وسرنا أكثر من كيلومتر لنبحث عن المتجر الآخر لنقف في صف طويل آخر .. انه الاختصاص الذي لا بد من دفع ضريبته .. وانه السيطرة التي تفرضها الدولة على ما تملك وما الناس إلا أداة للتنفيذ .. وفي كل مصنع أو معمل أو إدارة حكومية مطعم لاطعام العاملين حتى لا يستنفدوا من الزمن ما كان المصنع في حاجة اليه ..

ماركس والروس والكنائس

كان أكبر ميدان في برلين الشرقية هو ميدان كارل ماركس ، ماركس هذا هو مؤسس النظرية الشيوعية التي يعتبر الروس هم أكبر عضد لها وبالرغم من أن ماركس هذا يهودي ألماني .. فاننا نجد الروس أكثر تحمساً من الآخرين في تطبيق نظريته الملحدة ..

وعلى اتساع الميدان وطول شوارع برلين تشاهد الجنود الروس بوجوههم الحمراء ومعاطفهم الطويلة الحمراء أيضاً .. ونجمتهم الحمراء وشاراتهم الحمراء .. يقهقهون ويتدافعون قطعاناً أمام المحلات التجارية .. لا شك أن معظمهم قادم من الشمال وأحياناً تشاهد من بينهم بعض الجنود الذين في ملامحهم شيء من الشرق ربما يكونون من (القوقاز) أو من جنوب روسيا .. وجميعهم من الشباب الذين لم يشهدوا الحرب . وقد يكون بعضهم لا يعلم أن برلين هذه لم تكن برلين عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ .. وكلما تحدثنا إلى مسئول في الحزب - والحزب هو الدولة -

يطري لنا بإعجاب دور الأصدقاء الروس الذين أوقفوا المد الامبريالي الاستعماري وساعدوا ألمانيا الشرقية بكل ما يملكون.. غير أن هؤلاء المسئولين لا يتوقعون أننا نعلم أن أصدقاءهم الروس اقتلعوا حتى السكك الحديدية في ألمانيا الشرقية عندما عجزت بعد الحرب عن التعويضات الضخمة التي أثقلوا بها كاهل الشعب الالماني الكبير ... ولعل الشيء الوحيد الذي لم تمسه يد التغيير والتجديد في ألمانيا الشرقية هو الكنائس ، فلا زالت مآذنها ونواقيسها وصلبانها تحمل آثار القنابل والرصاص منذ الحرب العظمى .. ولقد وجد الحمام في نواقيسها ملجأ له فبنى أعشاشه على قبابها مطمئناً لا تزعجه نواقيس الصلاة .. وسألنا عن كنيسة كبرى تتوسط المدينة لماذا لم ترمم .. فقيل لنا إن الدولة فكرت في إزاحتها ولكنها وجدت أن الأموال الضخمة التي تستلزمها عملية الإطاحة غير متوفرة ولهذا تركت على ما هي عليه . وسألت أحد الشبان هل تذهبون للكنيسة .. فضحك . لأن سؤالي كان غريباً .. وقال : نحن لا نذهب للكنيسة .. ويشدد المسئولون في ألمانيا الشرقية على أن للمتدينين الحرية في أداء شعائرهم الدينية إذا رغبوا ..

ألمانيا والأحزاب

وفي ألمانيا الديمقراطية خمسة أحزاب ..ولكنها جميعها تحني نواصيها للحزب الشيوعي الحاكم لأنهم متفقون كما نقل لنا على أن الطبقة العاملة هي التي يجب أن تسود .

ولما سألنا أحد المسئولين في الحزب المسيحي أو كما يسمونه (المتدين) كيف تتفقون مع الحزب الشيوعي الملحد الذي يؤمن بسيادة الطبقة العاملة في الوقت الذي تؤمنون فيه بالله وبأن الناس سواسية ..

أجاب: إننا والحزب الشيوعي متفقون تمام الاتفاق ومنطبقون تمام الانطباق

فلا خلاف بين الحزبين ولا خلاف بين الشيوعية والمسيحية . ولم أستطع أن أفهم حتى الآن كيف يكون ذلك ؟

ورغم أن المانيا الديمقراطية تطبق الشيوعية كنظام اقتصادي وكحزب حاكم غير أنني أشك كثيراً في أن معظم الشعب الالماني الشرقي يؤمن بهذه المبادىء في قرارة نفسه ..

فالكثيرون ينضوون تحت لواء الحزب حتى يتحصلوا على أعمال يرتزقون منها .. وفي حديث لنا مع أحد المسئولين في الحزب الحاكم .. اندفع يشجب النازية مع أنه كان أحد المنتسبين إلى الحزب النازي .. وقال في سرد حديثه : لقد كان الناس ينتمون للحزب النازي خوفاً من السلطة وطمعاً في العمل .. فقلنا له: وما الذي يؤكد أنه لا يحدث الآن في انتساب الناس للحزب الشيوعي؟ قال : ربما يحدث .. ونحن ليس لدينا مقياس نضعه في عقول الناس لنعرف مدى إيمانهم بالحزب أو لا ، ولكننا نقوم بتصفية بين الحين والآخر داخل الحزب ..

برلين والألم

الزائر برلين يشاهد عن كثب ودون أن يحتاج إلى أي دليل آخر كيف يتصارع الغرب الامبريالي الاستعماري والشرق الشيوعي الملحد على بقايا الشعب الالماني الكسيح ..

وكل طرف يرى نفسه مدافعاً عن الحرية .. ولولاهما لما هدرت الحرية .. وكل طرف يرى نفسه مدافعاً عن الحق .. والحق أبعد ما يكون عنهما معاً .. وكل طرف يرى نفسه أنه المدافع الوحيد عن الشعوب .. ومن الذي فرّق الشعوب غيرهما ....

الرجل يقف في برلين الشرقية وأخته في برلين الغربية .. بينهما سور عظيم وحرس مدجج بالسلاح .. والمرأة تقف في برلين الشرقية وأحياناً زوجها في

المانيا الغربية وبينهما عدة أمتار ولكنهما لا يستطيعان اللقاء .

وتوجهنا إلى البوابـة التي تشطر المدينة .. عشرات النساء والأولاد وقفوا من هذه الجهة يلوحون بـأيديهم لآخرين في الجهة الأخرى ؛ لا شك أنهم أقرباء لهم .. العمارة من هنا تقابلها الأخرى من هناك .. النوافذ مشرعـة .. العجائز تطل من هذه لتلك .. ومن تلك إلى هذه ، لا شك ان عجائز برلين يبكين النكبة ويلعن الضعف والوهن ، إن العجائز يذكرن بكل مرارة أيام طفولة زاهرة كن يلعبن في برلين دون أن يكون هناك سور .. لعلهن كن يقطعنهـا جريـاً دون أن يوقفهن شرطي مدجج بالسلاح .. وإذا لم يمتثلن للأمر يسقطن صرعى بالرصاص ..

إن مأساة برلين أسوأ مأساة صنعها الاستعمار الحديث بعد مأساة فلسطين .. الروس في الجانب الشرقي بحلف (وارسو) يسقطون أكثر من ثلاثة آلاف مواطن الماني شرقي بالرصاص لأنهم تظاهروا في يوم من الأيام طلباً للحرية ورفعاً للجور ..

والأمريكان في الجانب الآخر الغربي ينشرون الانحلال الخلقي والاستهتـار والحشيش والجنس والخمر لإذابة الشعب الألماني في أنهار الرذيلة المتعفنة ..

فعندما طلبنا زيارة برلين الغربية وسمح لنا كانت الاجراءات كأننا ندخل إلى دولة أجنبية أخرى .. وكان الجنود الأمريكان في زي رعاة البقر يترنحون مخمورين .. وكانت الصور العارية والعارية تماماً على واجهات محلات التصوير .. وعلى أغلفة المجلات والصحف .. مناظر يندى لها جبين الإنسانية .. وكان العلم الأمريكي يسبح في سماء برلين الغربية يقف بجانبه متلاشياً كالخادم بجانب سيده العلم الالماني الغربي ..

إن الغرب الامبريالي يبذل جهده ليجعل برلين الغربية التي يبلغ عدد سكانها حوالي المليونين والنصف جنة في وسط العالم الشيوعي ، ولكن هذه الجنة رغم أنه زرعها أزهاراً تغش النظر .. إلا أنه لم يوفق في أن يجعل لأزهاره رائحة ..

إن المواطنين يمارسون حقهم الطبيعي في الحياة عندما يقفزون فوق السور نحو الغرب أو نحو الشرق ولكن النظامين لا يعترفان بهذه الحقوق . فعندما سألت أحد المواطنين : ألا تحن لأسرتك التي تقع في الجهة الأخرى ؟؟ فأجاب : إن السياسة لا تعترف بالعلاقات الاجتماعية .. وعلينا أن نمتثل إذا أردنا أن نعيش.

إن الالمان الشرقيين يقولون :

لقد صنع الاستعمار الامبريالي برلين في وسط العالم الشيوعي كما صنع إسرائيل في وسط الوطن العربي .. وعلينا جميعاً أن ندرأ هـذا الخطر .. وفي برلين تتواجه القوات المسلحة بجزءيها البري والجوي لكل من الحلفين القويين « وارسو – والاطلنطي » وفي بحر خمس دقائق تستطيع قوات الحلف (وارسو) أن تتأهب وتتحرك للجبهة كما قال لنا الضابط المسئول على بوابة السور . وقـد يكون في مثل هذا الوقت استمداد القوات المقابلة ..

وسيكون النصر حتماً من نصيب صاحب الضربة الأولى التي لن تقع بين الحلفين أبداً إذا استمرت الظروف العالمية على ما هي عليه .. وبجـانب السور من الجهة الشرقية يقع مبنى مجلس (الرايشتاغ الالماني)مظلم الجوانب خالياً يحكي للعالم أسطورة العظمة العريقة .. ويروي للناس قائلاً : « من هنا مرت العظمة » والشيء الوحيـد الذي يسير بين الشطرين بـدون جواز سفر .. هو ذلك النهر الهادىء الذي قد لا يعلم أن برلين مقسمة إلى شطرين غير أنه قـد لا يزال يحتفظ بجثث بعض القتلى الذين حاولوا التسلل عبر مياهه إلى الشطر الآخر ..

في المسرح

ولعل الباحث عن الشعب الالماني الذي يتحدث عنـه التاريخ يجده في المسرح ، فلقد أقيمت لنـا إحدى الأمسيات لزيارة استعراض تاريخي للرقص وكيف تطور الرقص عبر العصور .

كان المسرح يغص بالنظارة..وكان المسرح من العظمة بمكان،الأمر الذي جعلنا نقلب الأنظار بين زواياه قبل أن يبدأ الاستعراض .. لقد كان هتلر يؤم هـذا المسرح .. ولقد كان من قبل عظماء ألمانيا يؤمونه .. التدخين محظور وحتى أثناء الاستراحة .. فللمدخنين صالة خاصة – وعندما كنا في القاعة المخصصة أثنـاء الاستراحة لغير المدخنين وسها أحد الزملاء فأشعل سيجارته التفت له الجميع في عجب وانشداه، وتقدم منه أحد الواقفين ليعلمه أن التدخين في الصالةالأخرى– بدأ الاستعراض وكأن الناس على رؤوسهم الطير .. ولم ينس الالمان تنكيتهم على الفرنسيين حتى في الرقص .. ولقد كان استعراضاً رائعاً ..

كان رئيس الفرقة رجلاً أشيب مهيب الطلعة .. يقف ليقدمهـا في أسلوب حربي فيخيل إليك أنه يأمر الجنود الالمان للتقدم .. ويتكلم بصرامة وكأن وجهه يضفي على الكلام جدية أكثر .. وينسحب لتبدأ الرقصة فتعلم أن الأمر بالرقص وليس بالحرب ..

إن لغة الالمان تساعدهم على أن يكونوا صارمين.. وخرجنا من المسرح ونحن على يقين من أن الشيء الوحيد الذي لا يزال يربط الالمـان بتاريخهم العريق هو المسرح والموسيقى ..

فالالمان الشرقيون يعتبرون أن لا صلة لهم بالمانيا الهتلرية .. ويعتبرون بسمارك الذي وحد المانيا هو رجل بورجوازي سعى لوحدة المانيا بقوة السلاح بعيداً عن رغبة الطبقة العاملة في الوحدة !!

جمعية الصداقة

وفي جمعية الصداقة الالمانية العربية قابلنا رئيسها .. وهو رجـــل تجاوز السبعين ولا يزال يتمتع بقوة الشباب وبإصرارهم على العمل .. وكانت المترجمـة فتاة المانية تجيد العربية بطلاقة نقلت لنا مشاعر هذا الرجل المتطوع لخدمـة

الصداقة العربية الالمانية .. وحدثنا عن أهداف الجمعية وعن مساهمتها في تشييد صرح الصداقة العربية الالمانية وفي شجب العدوان الاسرائيلي على البلاد العربية كما حدثنا عن فروع هذه الجمعية في البلاد العربية وهو يأمل أن ينشأ لها فرع في الجمهورية العربية الليبية .. والسؤال الذي يحيره هو لماذا أقفل فرع الجمعية في الخرطوم ؟؟

ولما أجبناه على أن المشرفين على الفرع في الخرطوم كانت لهم يد في تشجيع الانقلاب الشيوعي الفاشل .. انتفض السيد رئيس الجمعية قائلاً : إن هذه الاشاعات ترددها الامبريالية والاستعمار ، وقلنا للسيد رئيس الجمعية : ما دمنا بصدد الحديث عن الصداقة العربية الالمانية ونحن في مكتب جمعية هذه الصداقة .. يجب أن يعرف الأعداء والأصدقاء أن البلاد العربية لها تراثها الإسلامي العربي وحضارتها الاسلامية العربية .. وهي ترفض أيضاً أن تكون مسرحاً للشعارات الغربية والشرقية ، وكما أنكم لا تسمحون ببعثات إسلامية تبشر بالدين الاسلامي في البلاد الشيوعية فكذلك نحن نرفض أيضاً أية مجموعة تبشر بالشيوعية في وطننا العربي مهما كان مصدرها .. ولعل المعسكر الشرقي لا يزال يجهل والمعسكر الغربي أيضاً أن هناك قوة ثالثة في العالم ترفض سيطرة المعسكرين وترفض الانضواء تحت لواء أي منهما ...

الالمان والصغار

لم نتمكن أثناء إقامتنا في برلين من زيارة مصانعها التي كان بودنا الاطلاع عليها .. وكان في البرنامج أن نزور مصنعاً للعب الأطفال ، وكنا نتوقع أن نجد المصنع للمزامير أو الكور أو لأشباه ذلك ، ولكننا فوجئنا عندما وجدنا أن المصنع للقطارات التي تسير بالكهرباء على سكك من الحديد مصنوعة خصيصاً للعبة ..

ويدار المصنع من قبل المهندسين الالمان .. ومحرك القطار الصغير هو نموذج مصغر لمحرك القطار الكبير .. حتى إن شركة القطارات الكبيرة تستفيد من الابتكارات والتحويرات التي تطرأ أحياناً في محركات القطـارات الصغيرة كما ذكر لنا المهندس المشرف على المصنع ..

وفي المصنع عشرات النساء . فهذه تركب العجلات وهذه تركب المحرك .. وهذه تركب الخيوط الكهربائية .. ورابعة تختبر الآلة قبل دفعها للسوق .. إن هواة فك المحركات وتركيبها يراقبون المصنع بكل دقة وأي تغيير طفيف يأتي عشرات الهواة للاستفسار من المصنع عن سببه ..

وهكذا ينشأ الالماني الصغير محباً للآلة هاوياً لها ساعياً لأن يكون أحد صناعها ومديريها .

المرأة

وعلى ذكر المرأة في جمهورية المانيـا الديمقراطية .. فهي ليست المرأة التي أعرفها في الشرق ناعمة اليد .. حيية المظهر .. خجولة النظرات .. خافتـة الصوت ..

وإنما هي الرجل تماماً .. نظراتها القوية .. كفاها الخشنتان تسوق القطار كما يسوقه أي رجل ، تقف في مفترق الطرق شرطية مرور ، تنهر المارة بصرامة الرجل .. تدير المصنع والفندق ، وحتى العجائز المسنات في المانيا الديمقراطية لهن عمل .. فهن يحرسن المعاطف في دار الخيـالة وفي بهو المسرح أو في صالة الفندق .. فالرجل الالماني لا يجلس بمعطفه رغم أن كل الناس تقريباً يجلسون بمعاطفهم .. فالشمس خجولة في بلاد الالمان لم تظهر طيلة إقامتنا هناك إلا يومين فقط ولمدة قصيرة ، والحق الذي يجب أن يقال إن الأخلاق في هذا البلد بخير إذا ما قورنت بالانحلال في القسم الثاني الذي تسيطر عليه قوات الامريكان ..

على شاطىء البلطيق

كانت المدينة الثانية التي وضعت في برنامج زيارتنا لألمانيا الديمقراطية هي مدينة « روستوك » .

ومدينة « روستوك » هذه تقع على ضفاف بحر البلطيق وهي عاصمة المقاطعة المسماة باسمها والتي يبلغ عدد سكانها حوالي ٨٦٠ ألفاً من المواطنين الالمان الذين يمتهنون الزراعة وأعمال البحر .. إذ أن هذه المدينة هي أهم ميناء لالمانيا الشرقية وأهم حوض لبناء السفن .

ابتدأنا الرحلة في الصباح الباكر والجو ملبد بالغيوم ، والمطر ينفث رذاذاً على أديم الأرض يربط بينها وبين السحب في شكل هو أقرب للضباب منه للمطر .. كانت السيارة التي تقلنا من صنع روسي .. وكان الشاب الذي يقودها مزهواً بها يطري متانتها وتحملها.. ودفع فيها٢٧٠٠٠ مارك بما يساوي(٢٧٠٠) ألفين وسبعمئة دينار وانتظرها ست سنوات .. فالإنسان الذي يريد أن يشتري سيارة في هذه الجمهورية عليه أن ينتظر ست سنوات كاملة ، وكثيراً ما يموت طالبها وقد يتمتع الورثة بالسيارة من بعده .. وهالنا المبلغ الضخم والانتظار الطويل ولكننا سلمنا وازدرينا ثمنها عندما علمنا أن سيارة المرسيدس التي تساوي عندنا ألفين من الدينارات تساوي هناك سبعة آلاف دينار .. لم يكن هذا الحديث مهماً بالنسبة لنا ولكننا مضطرون للحديث طوال الطريق عن أي شيء حتى عن الجنود الذين كانوا يستوقفوننا بين الحين والآخر في بوابات معدة لذلك للتأكد من هوياتنا .

ولقد عرفنا أن الغريب في هذا البلد عليه أن يسير في طرق مرسومة موافقاً عليها قبل أن يدخلها .. فليست كل الطرق مفتوحة للغريب.. كان الجنود الحمر في شاحناتهم الحمراء بنجومها الأشد حمرة يجتازوننا أحياناً ، وقليلا ما كنا نتجاوزهم .. وكانت الأرض بساطاً من الخضرة ودغلاً من الغابات الصنوبرية ،

ترتع الأبقار في مراعيها الدائمة ، وكانت منازل الفلاحين المحدودبة الظهر غارقة في تجهم القدم تحمل أسرار التاريخ وتحتفظ بذكريات الماضي والأرض حواليها تدكها أقدام الجنود المنتصرة والمهزومة تناست الأرض محنتهـا ، وأطلت من خباياها أزهار الربيع البديعة توحي باختلاط ألوانها وتباينها بما يجب أن يكون عليه البشر من تآلف وانسجام .

إن الطبيعة على جانبي الطريق بساط من الخير هكذا تراءت لي .. ولكن الالمان يشكونها لأنها لا تحمل في أعماقها صورة ظاهرها .. فهي من كنوزها لا تجود إلا بهذه الوريقات الخضراء .. فالبترول ، والحديد ، والفحم ، وغيرهـا مما ينفع الناس في هذا العصر لا وجود له إلا ما ندر .. حقيقة إن المظاهر خادعة ..

« روستوك »

كان وصولنا إلى عاصمة المقاطعة قرابة منتصف النهار .. فإذا بهامدينة جميلة البناء في تناسق جميل .. تطل الأزهار من شرفاتها وتطوق الحشائش المتسلقـة جنباتها محاولة منها للوصول إلى شبابيك مستترة..جعلها البرد لا تفتح إلا لماماً..

وامتد أمام المدينة بحر البلطيق في زرقة متناهية .. تمر على صفحته رياح الشمال الباردة فتزيده برودة ويزيدها صفاء .. تحمل للناس تحيات القطب الشمالي غير محبذة من الذين جاءوا كأمثالنا من بلاد الشمس والدفء .

كانت هذه المدينة عام ١٩٤٥ مجموعة من الخرائب .. لم يترك الحلفاء فيهـا حائطاً يستند على حائط .. واستمر قصفهم لها أسبوعاً كاملاً بليله ونهاره خاله من تبقى من الناس دهراً .. اشترك في جمع حطب أتونه الطيران والبحرية .. وكان الإنزال في « روستوك » بداية النهاية لاستسلام المانيا بدون قيد أو شرط في الساعة الثانية والدقيقة الواحـدة والأربعين من صباح السابـع من أيار عام

١٩٤٦ .. وعندما طلب الفريق « بودل » أن يلقي كلمة وأذن له قال :

« أصبح مصير الشعب الالماني والقوات الالمانية – بتوقيع هذه الوثيقة إن خيراً وإن شراً – رهناً بأيدي المنتصرين .. وفي مثل هذه الساعة لا يمكنني إلا أن أعرب عن الأمل في أن المنتصرين سيعاملوننا معاملة كريمة » ..

ولم يرد أحد من جانب الحلفاء على كلمته هذه .. ولكل هل تراهم عاملوا الشعب الالماني معاملة كريمة..؟ نترك الإجابة على هذا السؤال للشعب الالماني..

عندما شعر رجال الاسطول الالماني بالهزيمة أقدم الكثيرون منهم على إغراق سفنهم وهم بداخلها أمام المدينة التي دافعوا عنها حتى النهاية ..

إذ لا حياة للرجل الكريم في ظل الهزيمة .. نفس العمل الانتحاري الذي أقدم عليه الطيارون اليابانيون بعد تلك الفترة بأشهر .. عندما انقضوا على الأسطول الأمريكي بما فيها ومن فيها .

نترك التاريخ للتاريخ ونعود للحديث عن « روستوك » اليوم .. فلقد أصبحت اليوم بفضل عزيمة الشعب الالماني مدينة من المدن العظيمة لا أثر مطلقاً يدل على أنها شهدت حرباً مدمرة ، فحتى الشوارع الفسيحة المرصوف بعضها بالأحجار الكبيرة على طريقة الرصف في القرون الماضية عادت كما كانت عليه بل بصورة أجمل .. تحفها الأشجار التي لم نسمع لطيورها شقشقة .. ربما أنساها البرد القارس المستمر ألحان الطرب والغناء .

ولقد أخرج الالمان الكثير من السفن الغرقى ورمموها وأعيدت للعمل ولكن تحت أعلام ليست كالتي أغرقت وهي ترفعها منذ ثلاثين سنة ..

على صفحة البحر

خرجنا في جولة بحرية أعدت لنا في يخت معد للسياحة يركبه الناس نظير

أجرة معينة فينطلق بهم في جولة محددة ... يعود بعدهـــا ليلقي بالأولين ويحمل الآخرين ..

انساب بنا المركب في الخليج الذي تقع عليه المدينة .. ماراً بأحواض بناء السفن .. بحيث يشاهد المرء بعضها وهو في طور البناء كهياكل لأقفاص صدرية لحيوانات ميتة منذ زمن بعيد ..

كان الميناء كبيراً وكان تصنيعه للسفن في تقدم علمناه عند اطلاعنـــا على مقياس الإنتاج بحيث تبنى فيه ما بين ١٠ إلى ١٢ سفينة بين شحن وحربيـــة و٨٠ ٪ من هـــذه السفن تبنى لحساب الاتحاد السوفيتي .. أو كما يصر الالمان الشرقيون على تسميتهم بالأصدقاء الروس .

وعندما زرنا في اليوم التالي متحفاً بحرياً على ظهر سفينة متقاعدة .. كانت صور الحرب العالمية الثانية تملأ ردهات السفينة (المعرض) وكان تاريخ بنـاء السفن مسجلاً بالصور فلا يخفى على الرائي التقدم العظيم الذي خطته هـــذه الصناعة منذ قرون مضت عندما كانت السفن الشراعية هي عماد الأسطول لأية دولة ذات أسطول .. وبين هذه الصور تبرز صور الزعماء الروس وهم يفرضون سيادتهم على المانيا .. إذ أننا شاهدنا صور التوقيع على وثائق الاستسلام هي الأخرى تحتل صدارة المعرض وكأنها إحدى منجزات الشعب الالماني .. أو كما يسمونها منجزات الطبقة العاملة الالمانية ..

هنا وصل العرب

كنت والزملاء نقف على شاطىء البلطيق في تأمل عميق يخالجـــه شيء من الشعور بالتوغل إلى أرض لم يصلها أجدادنا الأوائل .. رغم سياحتهم في أرض الله ينشرون العلم والثقافة والمعرفة . ونحن نتأمل الميناء شاهدنا على جانب منه إحدى السفن الرابضة وقد كتب اسمها بالحروف اللاتينية « مركب » .. وسألنا

المرافقة : – ماذا تقصدون بكلمة مركب ؟..

قالت : إنه اسم السفينة . فقلنا لها : هذه كلمة عربية – فاندهشت عندما علمت أنها عربية ، ولم تكن هذه هي الكلمة العربية الوحيدة في اللغة الالمانية فأنت تطلب (طاسة ليمون) فتلبي لك عاملة المقهى طلبك فالكلمة بحذافيرها تنطق في الالمانية ..

وأنت تطلب الجلوس في الصالة فتجدها نفس الكلمة في الالمانيـة . وتطلب بنان الموز ـ فتجد نفس الاسم – أيضاً (بناني) ..

وعندما زرنا المتحف الفني الذي ذهبنا لزيارته في نفس المدينة والذي يضم عشرات اللوحات لعظماء الفن بجميع أنواعه ومدارسه .. شاهدنا وسط المتحف على إحدى عرصات البناء صندوقاً واجهته من الزجاج .. أقبلنا نتأمله .. فإذا به يحوي مجموعة من المخطوطات العربية تتوسطها وثيقة مخطوطة على الرق كتبت « بالصماغ » ذلك الحبر العربي الذي تعلمت به كما تعلم به ألوف المسلمين شعـائر دينهم وسور القرآن الكريم ... وقفت أمام هذه المخطوطات وقفـة الطفل الصغير أمام سيف والده الذي قتل وهو في يده ... تأملتها كما يتأمـل عربي الخليـج لؤلؤته التي غاص للحصول عليها إلى أعماق متناهية .. إن الأسماء التي تحويها هذه المخطوطات هي أسماء أعرفها .. بعضها لا زالت أسرتي تحمل اسمه.. شعرت وأنا أتأملها كأنمـا كنت جالساً ضمن المجلس الذي كتبت فيه هذه المخطوطات .. إن بعض هذه المخطوطات يرجع تاريخه إلى ما قبل اكتشاف الورق ، عفا عليها الدهر ، تتبين للقارىء السريع أنها فريضة ميراث وبعضهـا حجة بيع وأخرى لم أتبينها .. لقد مر أجدادي من هنا ولقد وصلوا إلى هنا ، ورغم رحلتي التي حسبتها طويلة والمسافات التي ظننتهـا بعيدة والبحار التي تراءت لي شاسعـة لا يزال أجدادي الأوائل يسبقونني أينما حللت .. ويزينون صدور المتاحف والمعارف بآثارهم التي حتماً تدل على أنهم سادة العلم والمعرفة ..



بقدر ما زينت الجدران زخرفت السقوف بلوحات زيتية
وهي غاية في الابداع الفني

يجمعون الشمس

بعد التجول الطويل كانت لنا جلسة في فندق ضخم سامق البناء .. يطل على الشاطىء وعلى المدينة التي كنا قبل قليل نجوبها.. جلسنا في صالة دون قمته بقليل بحيث أصبحنا نرى الناس صغاراً كالعصافير في طرقات المدينة ، وتلك علة الذين ينظرون إلى الكون من عل .. لا شك أنهم ينسون أن الناس يرونهم صغاراً كذلك . وبعد قهوة لا شك أن حبها كان شتلة من جبال اليمن دخلنا أقسام الفندق نتجول لنرى ما يفخر الفندق بأن يريه لنا .. ولم يخفِ دليلنا تبرمه من احتجاج المصطافين الذين حرمهم الفندق من الشمس صباحاً لبسط ظلاله على مناطق شاسعة على الشاطىء . وفي غرفة من الغرف صنعت خصيصاً لجمع الشمس جعل سقفها من الزجاج السميك بطريقة تسلط الأشعة المتجمعة على سرير في قاع الغرفة يمتد عليه الراغبون في حمامات الشمس ..... ووقفت والدليل يشرح لنا فوائد الشمس .. وكيف أنهم استطاعوا أن يستخلصوا من أشعتها ما فيه شفاء للناس .. وكنت أثناء شرحه أفكر في عظمة الشرق .. فلله ما أسماك يا شرقنا وما أعظمك وما أكثر جحودنا للجميل والنعمة .. فحمام الشمس هناك بالمجان وهنا لا يناله إلا من أوتي من المال حظاً عظيماً ومن الرزق سعة ..

الحضارة تتم دورتها

ومن حمام الشمس انتقلنا إلى حوض السباحة ، ووجدنا الناس خارجين منه إلى غرف غير ذات أبواب وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم .. دون أن يبدو عليهم أي خجل كالذي اعترانا ونحن في كامل ثيابنا ، وقفت في حيرة من أمري..فلقد زرت جنوب السودان ووجدت الناس هناك عراة .. وقلت كما قال غيري إن ذلك نتيجة للتخلف الذي تعيشه المنطقة .. ولكن ألمانيا ماذا أقول ؟؟ هل هي

الحضارة التي تتم دورتها التي تحدث عنها ابن خلدون .. ربما ..

وحتى عندما أفصحت بسري للمترجمة التي ترافقنا ابتسمت ولم تزد على أن تقول ربما ...

في مبنى صحيفة المدينة

لكل مدينة من مدن المانيا صحيفة بل أكثر من صحيفة ، وللحزب الحاكم صحيفة ناطقة بلسانه ، كما أن لكل مقاطعة إذاعتها الخاصة .. ولما سألنا عن كثرة الاذاعات في المانيا الشرقية كان الجواب أن الامبريالية الغربية تقيم على حدود المانيا الشرقية ما يزيد على ثلاث وعشرين إذاعة موجهة لتغطية منطقة شرق أوربا .. وعليه يجب أن تقام مثلها من الاذاعات الموجهة للتشويش على البرامج المرسلة من الطرف الثاني .. وزيادة في الحيطة تفرض ألمانيا الشرقية على مواطنيها اقتناء أجهزة استقبال صنعت خصيصاً لاستقبال الموجات المحلية ..

وقبل أن ندرك هذه الظاهرة تعبنا من دعك أذن جهاز الاستقبال الموضوع تحت تصرفنا في غرفة الفندق .. عله ينطق عربياً أو حتى غير الماني .. فلم يستجب ، ولعله في داخله يقهقه منا لجهلنا في أنه لا يجيد غير الالمانية الشرقية .. والصحف في المانيا الشرقية يوزع منها أكثر من ٩٠ ٪ نظير اشتراكات.. وقليل جداً هو الذي يطرح في الأسواق وليس من كل الصحف .. وللالمان الشرقيين – كغيرهم من الشيوعيين – نظرة للصحافة تختلف كثيراً عما عهدناه ، فالصحفي في شرقنا العربي يجب أن يبحث عن الحقيقة وعليه أن يبرزها .. أما في ألمانيا الشرقية فعليه أن يدافع عن وجهة نظر الحزب حتى ولو كانت خاطئة ..

« بوتسدام »

المدينة التي اتفق فيها الحلفاء على تقسيم ألمانيا

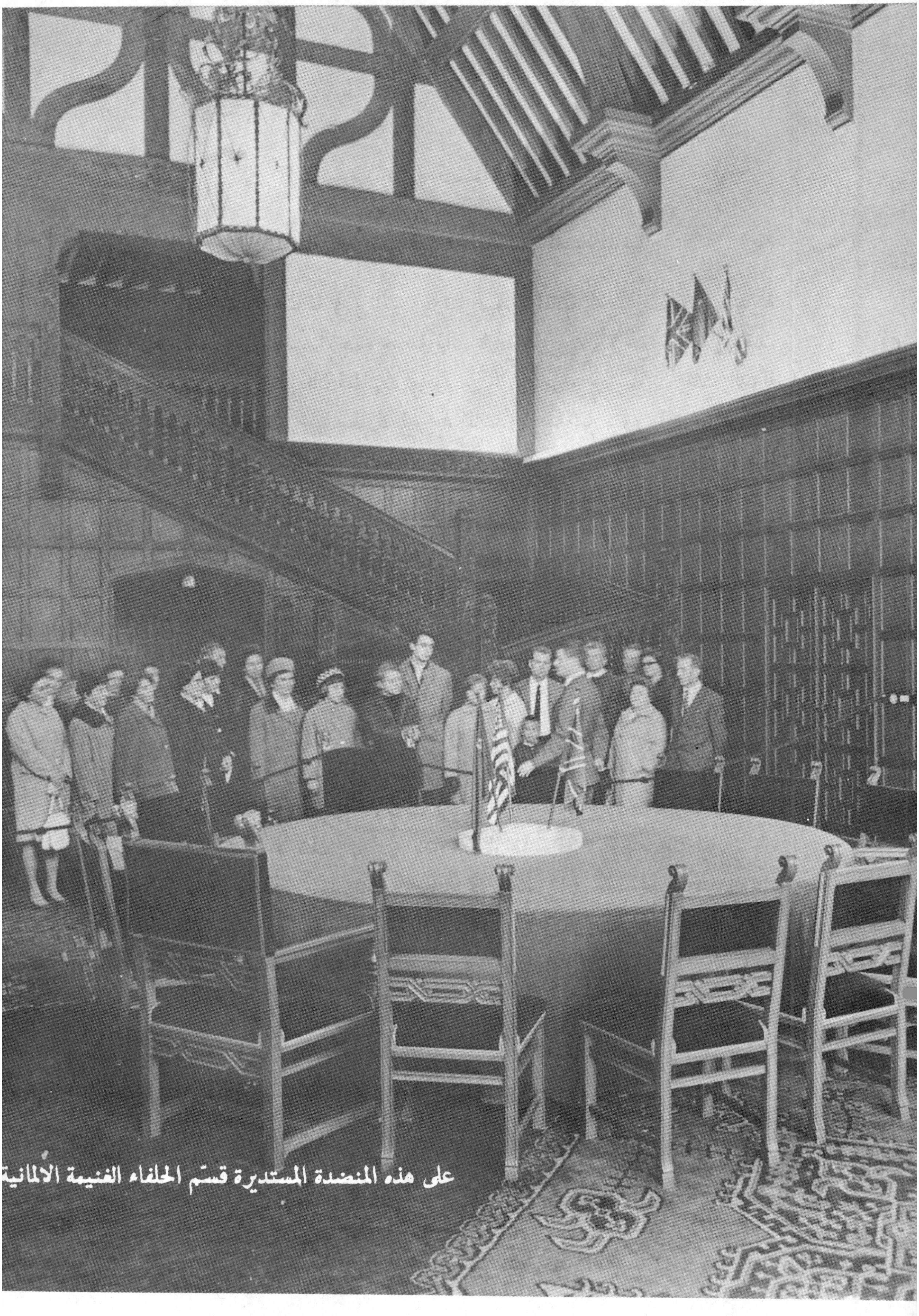
كانت المدينة الثالثة في برنامج زيارتنا لجمهورية المانيا الديمقراطية هي مدينة « بوتسدام » . وبوتسدام هذه مدينة ذات تاريخ عريق .. ترجع شهرتها إلى تلك القصور العظيمة التي كان قطانها في يوم من الأيام أمراء بروسيا .. تلك الدولة الصغيرة التي انطلق منها بسمارك ليوحد المانيا في قصة شهيرة يرويها تاريخ الوحدة الالمانية كنهج لمن يريد أن ينتهج لتوحيد أمة توافرت عناصر الوحدة بينها وفرقتها السياسة .. وكثيراً ما فرقت السياسة بين ما وحد الله .

وترجع شهرة بوتسدام في التاريخ الحديث إلى أنها المدينة التي اتفق فيها الحلفاء على التقسيم الحالي لألمانيا وكان في اتفاقهم تشتيت لأمة المانيا العظمى التي ركعت على ركبتيها ولم تنهض بعد .

كان أوسط الأيام الثلاثة التي أقمناها في المدينة أكثرها تحركاً بالنسبة لنا فلقد خصص هذا اليوم لزيارة قصور الأمراء أو كما يسمونها « قصور الراحة » .

سرنا إلى القصور مسافة ليست بالكثيرة .. فوجدناها في حديقة واجمة ألجم طيورها البرد القارس ، ولكنه لم يستطع أن يلجم أكمام أزهارها فتفتحت هازئة بالأنواء .. لا شك أنها تحكي للقادمين تاريخاً حافلاً لمسيرة طويلة لبذرة كان الأمراء الأوائل الذين شيدوا هذه القصور قد وضعوها في هذا المحل ورعاها رعاة الحدائق ، ومن يومها وهي تورق وتزهر وتذبل وتعود للايراق والإزهار والذبول ، وتلك سنة الحياة ..

مرت بنا مرافقتنا عند باب القصر على صندوق مليء بالأحذية الوبرية يختار منها الزائر ما يناسب قدمه فيلبسها من خارج الحذاء وينزلق بها من فوق أرضية من خشب الورد التقت عليها يد الصانع الماهر والزمن السائر وأقدام الزوار



على هذه المنضدة المستديرة قسّم الحلفاء الغنيمة الألمانية

بأحذية الوبر فصارت الساحة كأنها ساحة للانزلاق ترى الناس يتفرجون ويمشون على البساط الخشبي دفعاً .. فكأنهم يسيرون في الفضاء لا وجيب أرض ولا قرقعة حذاء .

وعلى جدران الساحات الفسيحة هناك عشرات الصور الزيتية العظيمة التي تشد الزائر إليها، وعشرات من الناس وقفوا ينظرون في صور لا ينقصها إلا النطق فيشده المرء عندما تقف صورة جميلة متحركة أمام صورة جميلة مثبتة في الحائط فيحار إلى أي الصورتين ينظر ، وإلى أيها ينصب اهتمامه .. فتخاله كالناظر إلى الربوة المزهرة التي يسرق النظر منه سفحها المعشوشب الموشى . فما أعظمك يا الله يا خالق الربوة المزهرة وكاسي السفح خضرة ونواراً !!

نترك الجدران وننظر للسقف أو بالأحرى للسقوف .. لوحات زيتية تغطي السقوف : هذه لملائكة يسبحون في الفضاء .. وأخرى لنساء عاريات جعلن من الماء ستراً لما وجب أن يستر ، وتلك لوحة لمعركة قائمة على أشدها بين جياد جامحة .. صور في غاية الدقة ، ترى كم من الوقت نام الرسام على ظهره ليظهرها بهذا المظهر ؟ وكم من الشهور قضاها بين رائحة الألوان والزيوت ليخرج للناس أو بالأحرى للأمير لوحة ترضيه وترضي غروره وكبرياءه ..؟ عهود مضت كان الإنسان فيها عبداً للأمير .. ولا تزال بقاياها في بعض بلداننا بالشرق يتصرف فيها الملوك برقاب الشعب ، وكأن ذاك خلق ليملك وهذا خلق ليخدم ..

سؤال بريء

ونحن نتجول وعيوننا ترتفع للسقف وتنحدر للأرض ماسحة للجدران في عجب ، وفجأة دخلنا إحدى القاعات فإذا بالترميم يجري في سقفها وإذا بأرضها خرب منها بنفس المساحة التي خربت في السقف وفي نفس الاتجاه أيضاً .. فسألنا عن السبب فقيل لنا أنها قنبلة من قنابل الحلفاء جاءت على هذا الأثر الجميل فمزقته كما ترون..

فالتفت أسأل إحدى الزائرات وكانت المانية فقلت لها : هل سرق الخلفاء من تحف هذا القصر أشياء ؟؟ فانتفضت رفيقتنا في الجولة لتقول : تقصدون الروس ؟؟ قلنا نعم . قالت : أنا لا أتحدث في السياسة ، وابتعدت عنا ، وحتى عندما جاء مقعدي بجانبها في حجرة استماع للموسيقى قامت وابتعدت عنا حتى لا أسألها في السياسة .. تجولنا في القصر وكانت إحدى طالبات الجامعة تتولى عملية الشرح وجئنا إلى مسك الختام ..

يعزف على مئة آلة

دخلنا غرفة صفف بها ما يقرب من مئة آلة موسيقية مختلفة الأحجام والعهود .. متباينة الأوتار والأصوات .. هذه آلة أعرفها في الشرق وأخرى لم أرها في حياتي ... فمن الطنبور والدنقة والزكرة والدربوكة ... حتى العود والارغون والقانون والقيتار ...

وآلات أخرى من ضمنها البوق الافريقي الطويل والدف المستعمل في الطرق الصوفية ، وجلس النظارة يتابعون باهتمام رجلاً عظيماً أعطاه الله سعة في المعرفة ودراية بهذا الفن .. جمع هذه الآلات بمجهوده الخاص يجيد العزف عليها جميعاً .. وقف بين الجالسين يلبي طلباتهم .. هذا يود أن يعزف له قطعة على الارغون ، وآخر يطلب منه إيقاعاً على الطبل. وثالث يريد منه نغمة على صوت (المقرونة) أو كما تسمى في الشام (المجوز) وكان الرجل يؤدي ما يطلب منه بكل إتقان وزيادة في ذلك يتحدث بإسهاب عن نشأة هذه الآلة وتطورها والمناطق التي تستعملها ..

إلى قصر الركوع

وخرجنا من القصر الكبير إلى قصر صغير أنيق بناه آخر الأمراء لسكناه ..

غرست أمامه بالأعشاب النجمة الحمراء الروسية . وقد اتخذ هذا القصر مسكناً للوفود العسكرية من الحلفاء التي جاءت عام ١٩٤٥ ما بين ١٧ من يوليو إلى ٢ من أغسطس حيث تباحثت في أمر الغنيمة الألمانية وتم التوقيع بينها على وثيقة التقسيم التي عرفت في التاريخ باسم معاهدة « بوتسدام » .

كانت العجوز التي تتولى عملية الشرح التاريخية تتحدث بإعجاب عظيم عندما تشير بإصبعها : هــا هنا كان يجلس الرفيق ستالين .. ثم تستمر : وها هنا كان يجلس تشرشل .. أما الرئيس ترومان فقد كان يجلس على هذا الكرسي .. ولقد كان كندي مراسلاً صحفياً يجلس هناك .. ولقد سقط تشرشل في الانتخابات فلم يتم المؤتمر وعاد الوفد البريطاني برئاسة (اتلي) .

وعلى جدران القصر توجـــد صور الوفود وصور الوفد الالماني منكسراً مطأطيء الرؤوس وهم بمجموعة من الأسرى .. روبنتروب وزير الخارجية وكايتل قائد القوات..وغيرهم كثيرون لم يبق منهم على قيد الحياة إلا (هس)أشهر سجين في العالم حيث تحرسه في سجنه أربـع دول تسمي نفسها عظمى تـكلفها إجراءات الامن المشددة ملايين الدولارات خوفاً من شيخ عجوز تجاوز السبعين من عمره.. ومع هذا تسمي نفسها الدول الكبرى .

الملك وقضية خاسرة

حان وقت الغداء فانتقلنا إلى منزل صغير خارج القصور بــه مطعم صغير يقدم وجبات للزوار وقد كان لهذا البيت قصة ..

ففي عصر من العصور كان هذا البيت مطحناً صغيراً يملكه أحد الفلاحين يطحن به الحبوب وكان بجانب القصر ... فاستاء الملك من صوت هذا المطحن المزعج فأمر الطحان بأن يكف عن إدارة طاحونته .. فرفض ، فحـاول أن يشتريها منه .. فرفض ..

وأخيراً رفع قضية ضد الطحان كان الخصم فيها الملك ، ومثل الاثنان أمام المحكمة وخسر الملك القضية وعاد صاحب المطحن يديره بهديره المزعج ولم يستطع الملك بعد ذلك تحريك ساكن .

ولما فرغت المترجمة من سرد القصة وكيف أن الحزب الشيوعي الحاكم حفظ لهذا الفلاح ذكراه وجعل مطحنه محجاً للزوار قلت لها :

وهل يربح هذا الفلاح قضيته لو رفعها الآن ضد الحزب الشيوعي ..

أجابت : لا أدري ..

إلى برلين والعودة

ونترك صديقة الرحلة لا تدري ونعود في صباح الغد في قارب أعد لذلك في نهر « الهافل » ، سار بنا أكثر من ساعتين في أدغال وحشائش تحف النهر من جانبيه لنصل بعدها إلى برلين . بل إلى المطار من برلين ..

في قاعة المطار

وفي قاعة المطار التقينا بأخ عربي من بلاد عربية هو الآن تحت تأثير نفوذ أجنبي ، أخذه الإعجاب بتطور وهمي عاشه في الغرب ، ضحك منا عندما قلنا سنسافر إن شاء الله .. قائلاً : إن العرب لا يجيدون إلا قول إن شاء الله ، انظروا للغرب ماذا فعل وماذا فعل ، وانظروا لهم وهم يحسبون الدهر بأرقام التقدم بحسابات لا تخطىء .. انظروا لهم وهم يحددون الزمن بالدقيقة والثانية وأنتم هناك في الشرق تقبعون خلف « إن شاء الله » . وجاءت ساعة إقلاع الطائرة بعد أن حدد لها الموعد لنا بواسطة ناقل الصوت دون أن يقول المذيع

إن شاء الله .. وتأخر الموعد نصف ساعة ثم ساعة فساعة ونصفاً وأخونا العربي يتحدث وأخيراً قاطعته قائلا : إن هؤلاء لم يقولوا إن شاء الله وهم يحسبون كما تقول بالدقيقة والثانية .. ومع هذا كذّب الله حساباتهم وتأخرت الطائرة .. وسكت الأخ العربي ونحن لا نلومه فلقد تعلق بقشور ظنها حضارة . وصعدنا إلى الطائرة في طريقنا للوطن آملين أن نصله سالمين إن شاء الله ..

موريتانيا العربية

أغسطس وسبتمبر ١٩٧٢



هناك على ضفاف المحيط .. حيث الصحراء الموشاة بأشجار السدر والطلح ، وحيث جبال الحديد الناتئة في المهامه الكالحة الفجاج.. هناك حيث تلعب الرياح الهوج بأمواج المحيط الهادرة .. تلك التي اقتحمتها فرس (عقبة بن نافع) رضي الله عنه .. حائلة بينها وبين استمرار الفتح ..

من خلال هذه الأشياء جميعاً يطل الوجه العربي الأصيل بملامحه ومشاعره .. بعواطفه الجياشة .. بعاداته وتقاليــده .. بشعره ونثره .. بغضبه ورضاه .. هذا الوجه الذي يتمثل في شعب موريتانيا العربي ..

= السلام عليكم

– وعليكم السلام

= ياك الخير ؟

– إلا الخير .

= ياك ما طاري باس ؟

– لا ، لا باس .

= واش طاري ؟

– إلا الخير .

كان هذا الحوار أول حديث دار بيني وبين الأخوة في مطـــار نواكشوط

عندمـــا هبطت ضمن الهابطـين من الطائرة الجزائرية إلى (بيشار) ثم إلى (نواكشوط) ... ان هذه الوجوه أعرفها منذ القدم ، انها وجه أبي واخوتي في طرابلس ، انها وجوه أصدقائي في مصر وفي لبنان ، بل انها وجوه أهالي نجد ، امرىء القيس ، وطرفة ، والنابغة ، وكأن هؤلاء أولئك هكذا يتراءى لي .. نفس الصورة التي رسمتها قصائد الأولين في ذهني لهم ..

كان السلام حـاراً ، واللقاء ممتعاً ، فكأنني عائد إلى موريتانيا بعد سفر طويل .. يسألونني عن الجمهورية العربية الليبية .. وعن العقيد القذافي ..ويقولون انه ابننا .. أليس هو من قبيلة الأغلال .. أولاد موسى .. كما يسألونني عن الأخ بشير هوادي ، ويطمئنونني على أبناء عمومته في (وادان) انهم بخير .. يسألون عن كل شيء ، سؤال المهتم الملح ، وليس سؤال الفضولي اللامبالي ..

نواكشوط

تقع العاصمة نواكشوط ، في سهل فسيح يبعد عن شاطىء المحيط الأطلسي خمسة كيلومترات .. تباعدا عن نفوذ المد عندمـــا يتمطى المحيط لابتلاع اليابسة ..

و« نواكشوط » معناها «محل القواقع » كما شرحها الأستاذ « مختارين حامد» – ابن خلدون موريتانيا كما يلقبونه – وعاصمة موريتانيا حديثة البنـاء فلقد أنشئت عام ١٩٥٨ ومنذ ذلك الحين وهي في ازدياد مضطرد حتى أصبحت اليوم مدينة لا يستهان بها رغم حداثة عهدها .

القصور ... والخيام

وفي (نواكشوط) تلتقي القصور بالخيـــام كأية عاصمة عربية في عصرنا

الحديث ، فالبدو ما إن سمعوا بمولد العاصمة الجديدة حتى تقاطروا عليها من كل فج عميق يحملون خيامهم على ظهور الجمال والحمير والثيران ليضربوا أطنابها داخل العاصمة أينما يحلو لهم ، كيف لا ؟!!. وهم أصحاب الأرض وأبناء البلاد، واخوان لأولئك الذين تسنموا السلطـة بعد الاستقلال ، وانك لواجـد القصر المنيف .. بأضوائه وستائره .. تقبع في فنائه الخيمة السوداء والبيضاء وفي المساء أو كما يسمونه « الدحميس » يجلس ساكن القصر وساكن الخيمة يتدارسان أوضاعهما ويناقشان مشاكلهما دون أن يكون هناك سد يفصل هذا عن ذاك .. ودون أن يكون هناك فوارق اجتماعية كالتي نلحظها في بعض بلداننا العربيـة بالمشرق أو بالمغرب تسربت إلينا عن طريق الاستعمار حديثه والقـديم منه .. والذي زاد من تكاثر الخيام بالعاصمة الجفاف الذي تقاطر على البلاد ، منذ خمس سنوات لم تغثهم السماء بدموعها فقضت بذلك على الزرع والضرع..

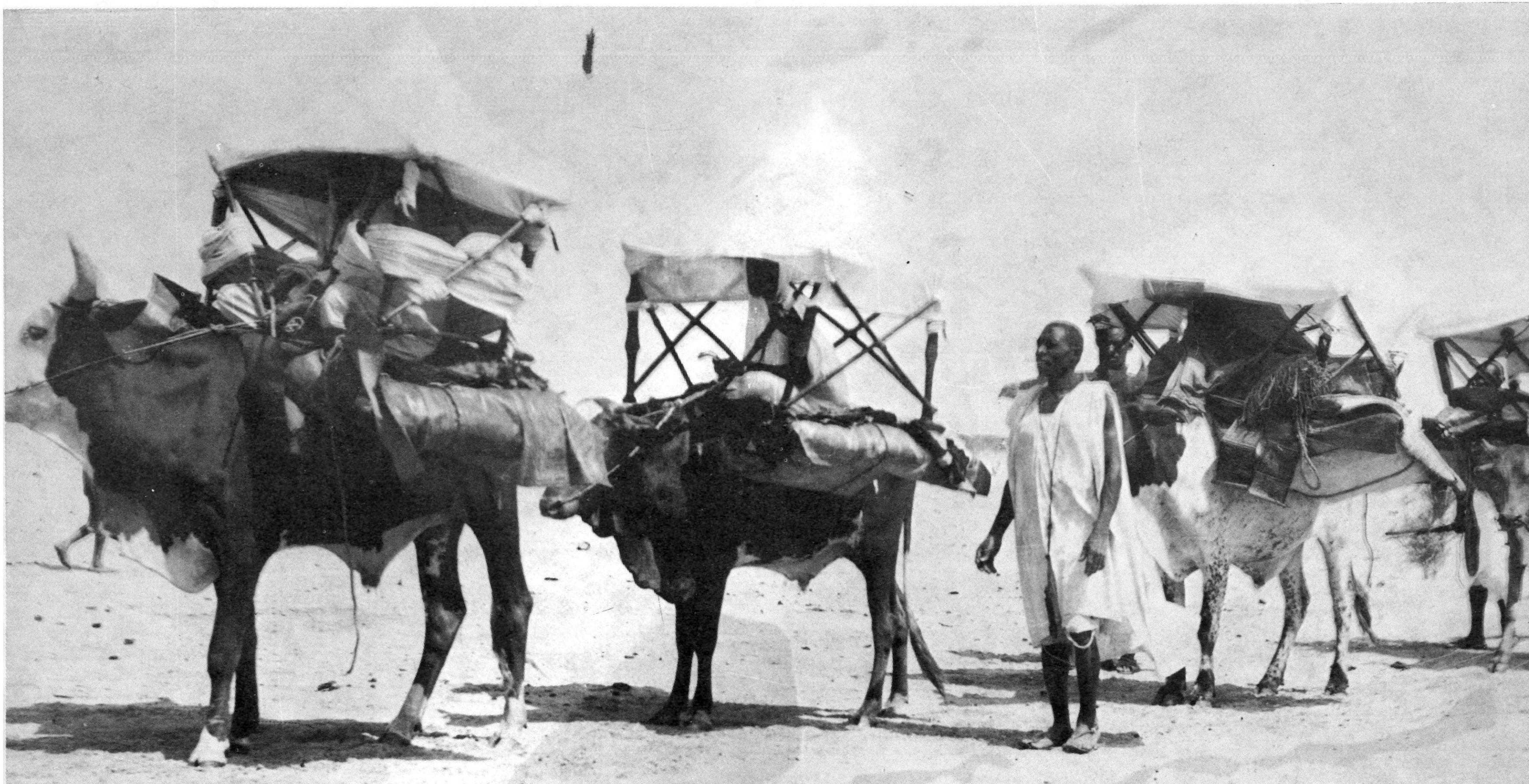
ففي السهول الجنوبية سرنا ما بين مدينة « القوارب وركيز » في وسط غابة من الطلح غير المنضود كانت أيدينا على أنوفنـا توقياً من الرائحة المنتنـة لتعفن الحيوانات التي نفقت من جراء الجفاف .. وانك لتمر على السهل فتراه كما لو كان مسرحاً لمعركة ضارية .. الشاة والناقة والبقرة عشرات وعشرات .. منها مـا هو حديث النفق ومنها ما هو دارسه .. عظامها تسفوها الذاريات .. وتعافها الطيور لهزالها الشديد ..

سبب الجفاف

وفي جلسة من جلسات الشاي في خيمة شعر تطارحنا الجفاف ونتائجه .. فانبرى شيخ مهيب الطلعة يؤكد في إيمان المسلم وشهامة العربي .. أن أسباب الجفاف تتلخص في السماح ببيـع الخمر في البلاد .. وكثرة الخبيثات، والخبيثات اللواتي يقصدهن الشيخ نساء نفث في صدورهن الشيطــان فزاغ بهــن .



وعلى ظهور الجمال يمهد للمرأة الموريتانية مقعد وخباء .. انه الهودج الذي
تغنى به الشعراء في الجزيرة العربية



وعلى الثيران يرحل البدو متجهين إلى المدن في الولاية لاولي (النعمة)



وعلى الحمير أيضاً يرحلون

جئن إلى البلاد من البلدان المجاورة .. وقد قام مدير الشرطة أخيراً بطردهن من البلاد وإرجاعهن إلى بلدانهن التي جئن منها ، وقيل انه طرد (٦٠٠) ستمئة امرأة لم تكن بينهن موريتانية واحدة ، وما أن فعل حتى تهاطلت الأمطار بغزارة في شهر سبتمبر الماضي مؤكدة قول ذلك الشيخ الطيب وصدق الله العظيم حيث يقول :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ..

وانك لسائر في الطريق فتسمع الناس يسأل بعضهم بعضاً عن المطر ويسمونه السحاب .

– منين عاقبين ؟ أي « من أين أنتم قادمون » .

– ياك قست السحاب ؟ أي « لعلك شاهدت المطر » .

وقد تباشر الناس وانفرجت الأزمة ولكن بعد القضاء على جل الثروة الحيوانية ...

يشربون البحر

وكما ضنت السماء بمائها طيلة السنوات الماضية .. كانت الأرض قد سبقتها في الشح ، فلم تجد بالعاصمة إلا قليلاً من الماء الأمر الذي جعل من تكاثر السكان وتوفير الماء لهم مشكلة من المشاكل القائمة .. ولهذا أنشئت في السنوات الأخيرة مضخة لتحلية ماء المحيط ، وهي تمد سكان العاصمة بالماء في ساعات محددة ومخصصة للتوزيع ، ومن فاته نصيبه من الماء في الصباح عليه أن ينتظر حتى يطل المساء ليأتي الدور الثاني لتوزيع الماء ..

اشتراكية الاسلام

وفي « نواكشوط» كما في غيرها من مناطق موريتانيا تتمثل اشتراكية الاسلام في أسمى معانيها .. وكرم العرب في أنصع صوره .. فالبيت الموريتاني لا يقفل بابه .. وغرفة الضيوف مفروشة لكل قادم ومتى شئت وفي أي وقت تلج البيت يقدم لك الطعام والشراب المتمثل في الأرز باللحم .. وتشرب «الزريق» وهو الحليب الممزوج بالماء والسكر.. يقدم في قدح من الخشب..وتشرب الشاي « ثلاث كؤوس » كما هي الطريقة عندنا .. ثالثها بالنعناع .. ولن تكون غريباً أو تشعر بغربة في موريتانيا .. فما أن تدخل البيت حتى تجد الترحيب من أهل الدار النساء والرجال ..

تجلس بينهم كأنك واحد منهم يسألونك عن أحوالك وتطلب الطعام وليس في ذلك أدنى غضاضة كأنك في بيتك .. وبعد الغذاء إذا شئت أقمت غير مبغض ، أو رحلت غير مطرود ...

ولقد حدثني أحد الأخوة المسئولين قائلاً :

أرجع إلى بيتي في الظهيرة فأجد العشرة والعشرين من الرجال .. لا أعرفهم ولم ألتق بهم من قبل قط.. يتناولون معي الغذاء ويذهبون في سبيل حالهم دون أن أشعر بأية غضاضة في ذلك ودون أن يشعروا .. وإذا رغب الإنسان أن يدخل أي بيت فما عليه إلا أن يقول عند دخوله المنزل :

بسم الله .. بسم الله .. السلام عليكم ..

وذلك لإشعار أهل البيت بدخوله .. فما أن يسمع قوله : وعليكم السلام ورحمة الله .. حتى يقصد ناحية الصوت ويردف صاحب البيت قائلاً :

مرحباً .. وسهلاً .. ويجلس الضيف وما عليه إلا أن يطلب .. كأن يقول

إذا رغب شاياً .. بغيت انعدل التاي ..

فتحضر له أدوات الشاي وقد يتقدم ليعد الشاي وحده ، إذا كان يرغب في ذلك .

علماء .. وشعراء

وأهل موريتانيا جميعاً بسطاء المظهر في ملابسهم الفضفاضة .. وأكمامهم الواسعة ولكنهم من أذكى ما رأيت من العرب ..

عرجت ورفيقي بسيارتنا على خيمة في سهل ما بين (روسو . واركيز) ولجنا خباءها دون أن يؤذن لنا فسلمنا وجلسنا .. فإذا بداخلها سيدة البيت .. وابنتها الشابة وكهل تجاوز الأربعين بقليـل .. أشعث أغبر .. لوحت الشمس بشرته .. وأعطته الصحراء من شظفها ما سلبه ليونة الحضر . وطلاوة المدن .. كشفت فتحة قميصه الواسعة عن صدر هو أشبه ما يكون بالقفص من الجريد.. تشابكت أضلاعه في قص نمت عليه شعيرات متباعدة كتباعد شجيرات الصحراء من حوله .. رحب بنا الرجل وجلسنا .. وقامت سيدة البيت تأمر خادمتها باشعال النار .. وقدمت لرفيقي أدوات الشاي جلس ليعده لنا .. وللشاي في الصحراء مكانة لا يعرفها إلا من عايش الصحراء وسار في متاهاتها ..

تطارحنا الحديث .. وطفق الجميع يسألونني عن ليبيا بعد أن قدمني رفيقي لهم . وصرنا نقارن أسماء الأشياء عندنا وعندهم ..

× البيت ،

× الفليج ،

× الغرائز .

الركائز الناقة .. والشمال .. والشكوة .. والقربة ..

وكلما ذكرت شيئاً من هذه الأشياء يصدقون قولي بأنها تذكر عندهم بنفس الاسم ، بأن يقولوا :

+ الله : حق .

ولما جئنا إلى أدوات الشاي قلت للرجل نسمي هذا (براد وطواسي – أو أكواب أو كيسان) وتماديت في الشرح قائـــلا : والانجليز يسمون الكأس (كوباً) .. وهنا قال الرجل ونظراته الحادة كالنسر .. كلمة كوب عربية وهي موجودة في القرآن .. قال تعالى : (وأكواب كانت قواريراً) .. كما أن كلمة كأس عربية أيضاً وهي موجودة في القرآن (وكأساً دهاقا) ..

وهنا عظم الرجل في عيني وعرفت أنني أجلس إلى عـالم متضلع متبحر في علوم اللغة يحفظ القرآن ويروي الحديث .. واعتدلت في جلستي وإذا بي طالب صغير امام عالم من علماء العرب في خيمة الشعر .. وفي كل بيت تجد عالماً وكل من تلاقيه فهو شاعر ..

شعب من الشعراء والعلماء هو ذخر أمة العرب في جناحها الأيسر ، والفقهاء يتبعون البدو في ترحالهم يعلمون الأطفال القرآن الكريم والحديث وألفيـــة ابن مالك وغيرها من علوم الدين . وانك لواجد الرجل ينهل الماء من بئر ليسقي حيواناته فإذا ما سألته وجدته بحراً لا ساحل له .

المـــرأة

والمرأة في موريتانيا لا تنقص ثقافة عن الرجل . فهي تحفظ القرآن وتشارك في المجالس وتدلي برأيها .. تحدثك في كل شيء رغم أنها لا تبرح خيمتها ولم تخرج خارج مدينتها والمرأة الموريتانية مدللة .. لا تقوم بأي عمل تلف جسدهـــا (بملحفة) كالتي تلبسها المرأة السودانية ولا تصافح الرجال وإنما تسلم من بعيد..



المرأة الموريتانية تقبل على الثقافة بنهم

ولا يمس يدها إلا أولو حرمة كأخيها أو أبيها أو غيرهما من المحارم .. وتلبس المرأة الموريتانية (الخلخال) في رجليها وإذا ما شاهدتها تسير فهي تمشي (مر السحابة لا ريث ولا عجل) وإذا ما حدثتك خاطبتك بصوت يكاد لا يسمع .. فرفع الصوت غير مستحب للمرأة.. وكذلك الضحك المرتفع والمشي السريع.. والمرأة الموريتانية تشترك في مجلس الشعب عن طريق ممثلات لها في المجلس الأعلى للنساء الذي ترأسه زوجة الرئيس (مختار ولد داده) .

أفراح الطلاق

وهناك ظاهرة أراها سيئة وتحتاج إلى دراسة وهي كثرة الطلاق والزواج في موريتانيا ، فالمرأة هناك يقاس مقدار حظوظها وجمالها بعدد الرجال الذين تزوجتهم .. وكذلك الرجل وإذا حدث أن اختلفت المرأة مع زوجها فما عليها إلا أن تطلب الطلاق منه حيث يسرع بذلك .. وتقام الزغاريد والأفراح ثلاثة أيام معلنة أن فلانة بنت فلان طلقت من زوجها .. ويتقاطر الرجال على بيت المطلقة وهي تعد لهم (التاي) وإذا ما أعجب بها أحد المترددين يقوم بنحر بعير أمام خبائها إعلاناً باعجابه بها وطلبه يدها .. فتوافق على ذلك وينفض الرجال الراغبون في زواجها وتنتظر انتهاء عدتها وتتزوج صاحبها ، والأولاد ويسمون (التريكة) أو (التركة) يتبعون أمهم ، فهي التي تتولى الانفـاق عليهم حتى يكبروا وما على الزوج إلا أن يتزوج ويطلق والنساء يربين أولاده..ولقد سمعت أن هناك من تزوج أكثر من مئة امرأة بعضهن لم يبق معه يومـاً أو يومين ، ولعل كثرة الطلاق ترجع إلى انخفاض المهور .. فمهر المرأة في موريتانيـا لا يتجاوز الخمسين ديناراً في الغالب إلا في الحالات النادرة .. ولهذا يستطيع الرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء .

كما انني أرجح عملية كثرة الطلاق إلى السن المبكرة التي تتزوج فيها المرأة الموريتانية .. إذ أن البنت تتزوج في العاشرة والحادية عشرة من عمرها ..

البيضان .. ولكور

والزائر موريتانيا لا يستطيع أن يتجاهل موضوع الزنوج .. وازديادهم في المنطقة فبعد أن كانوا ١٠ في المئة سنة ١٩٦٠ م .. أصبحوا اليوم ٢٥ بالمئة من تعداد السكان .. والزنوج هم من السنغال والنيجر ومالي .. وأكثرهم من السنغال .. يعبرون النهر بعشرة فرنكات ويصبحون موريتانيين بالجنسية الموريتانية التي تعطى لهم في بضعة أيام..والزنجي الذي يقطع النهر إلى موريتانيا يتبعه بقية أفراد عائلته حيث يجدون كل مساعدة من رئيس الجنسية الفرنسي ومساعديه الزنوج ..

من الغريب أن الزنوج بالرغم من أنهم مسلمون فانهم يقفون حجر عثرة في طريق اللغة العربية والتعريب .. وإذا ما ناقشت أحدهم عجز عن الإجابة بعد أن توضح له أن القرآن عربي وأن العربية لغة الإسلام ، ولم أستطع أن أفهم كيف يتعلق الزنجي باللغة الفرنسية التي هي لغة دخيلة غير لغته الرسمية وليست لغة دينه ، ومع هذا يتعلق بها ، والزنوج يطلقون على العرب (البيضان) أي البيض .. وهم يشتغلون كل شيء : في الفنادق .. في المطار .. في قيادة سيارات الأجرة .. في الحلاقة .. في الخياطة .. أما العرب فهم يعتبرون هذه الحرف تنقص من مكانتهم فلا يشتغلونها .

وكثيراً ما تجد إنساناً يمد يده للصدقة قائلا لك : (أنا شريف) ونسي أن نبي الله داود عليه السلام (كان يأكل من عمل يده) ..

دفاع عن العربية فوق السحاب

والمدن الداخلية في موريتانيا معظمها تفتقد الطرق المهدة للربط بينها وتقوم شركة الطيران الموريتانية بربطها برحلات منتظمة أحياناً وكثيراً ما تلغى



استعراض لمحاربي البدو في احد الاحتفالات الوطنية

لقلة الركاب أو لعطب حل بالطائرة..وفي طريقي من (نواكشوط) إلى(نواذيبو) عندما أقلعت الطائرة الموريتانية وقفت المضيفة تخاطبنا بالفرنسية ثم بالاسبانية ولكن لا وجود للعربية في الوقت الذي كان فيه جميع الركاب من الموريتانيين العرب الذين لم يفهموا ما تقول المضيفة في أغلبهم . وهنا انبرى رجـــل وقور يسأل المضيف قائلا :

× في من تخاطب صاحبتكم هذه ..؟

– فيكم أنتم الركاب ..

× انها تخاطب الريح فنحن عرب يجب أن تخاطبونا بالعربية وإذا لم تعرفوا الحديث بها دعونا نخاطب بعضنا بعضا .

ورد المضيف في تحمس للغته :

× نحن عرب ونعرف العربية ونجيدها ولكن الشركة التي أتقاضى منها راتبي طلبت مني ألا أتكلم بالعربية وأن يقتصر حديثي للركاب باللغـات التي كلمتكم بها المضيفة وإذا ما تجرأت وخاطبتكم بالعربية فقـــد تطردني الشركة ، والمثل يقول : « اللي تخدمه تطيعه » . .

واستمعت للحوار في بدئه ثم إذا به يجرني ويجر أيضاً زميلي في الرحلة الاستاذ أحمد أحميد – أحد صحفيي جريدة الشعب – الذي أقنع الرجل بأنه عندمـــا يعود إلى العاصمة سيخبر المسئولين هناك ليـــأمروا شركة الطيران الموريتانية بمخاطبة الركاب باللغة العربية ، ولا أدري ان كان فعل أم لا . غير أنه أقنـع الرجل بذلك . وقد انتهى هذا الحوار والطائرة تحلق على مطار (نواذيبو) بعد رحلة دامت ساعة كاملة من العاصمة (نواكشوط).

وهكذا تجد الدفاع عن العرب والعروبة بموريتانيا في كل مكان .

وعلى ذكر اللغة العربية يجرنا الحديث إلى التعريب. فموريتانيا تسعى لتعريب مناهجها منذ استقلالها غير أن ذلك لم يتم بعد إذا ما استثنينا محـــاولة تعريب

السنة الأولى الابتدائية. وقد يكون مرد ذلك إلى نقص المعلمين والكتب والمناهج العربية المدروسة، وبالرغم من أن الجمهورية العربية المتحدة أعطت لموريتانيا (٥٠,٠٠٠) خمسين ألف كتاب عام ١٩٦٥ لتدريسها للطلاب ككتب منهجية إلا أن الكتب لا تزال في المخازن حتى الآن.. ويقول المسئولون إن هذه الكتب لم تكن توافق في مادتها البيئة الموريتانية، فهي بالرغم من أنها من المفروض أن تدرس في موريتانيا فلا يوجد بها أي موضوع عن موريتانيا التي من الواجب أن يفهم الطلاب عنها قبل غيرها .. وقد أهدت الجمهورية العربية الليبية هذا العام لموريتانيا (٦٦) ستة وستين ألف كتاب ربما مصيرها مصير الكتب المصرية وذلك لعدم توفر المدرسين المؤهلين لتدريس هذه الكتب إلى ما فوق السنة الأولى الابتدائية ..

الخدمات الطبية

بحثت في موريتانيا عن أي طبيب عربي يشارك اخوانه العرب في مساعدتهم على التغلت على ألد أعداء الانسان الثلاثة .. ولكن طال بحثي ولم أجد أحداً والأطباء في موريتانيا قلة وهم من الأجانب .. يأخذون إجازاتهم جميعاً دفعة واحدة.

ولما سألنا أحد الممرضين بمستشفى (نواكشوط) عما يكون مصير المرضى في غياب الأطباء، أجاب:

هاهم ينامون في الظل حتى عودة الأطباء:

والصيدليات تكاد تكون معدومة، والأرض شاسعة تحتاج إلى جهاز كبير من الأطباء والمعدات ليستطيعوا توصيل الخدمات إلى كل مواطن في القرى النائية والخيام ..

وأنا هنا أوجه نداء إلى الأطباء العرب.. وإلى المعلمين العرب، وإلى المسئولين

العرب أن يقفوا مع موريتانيا وأن يضحوا في سبيل موريتانيا خدمة للعرب والإسلام .

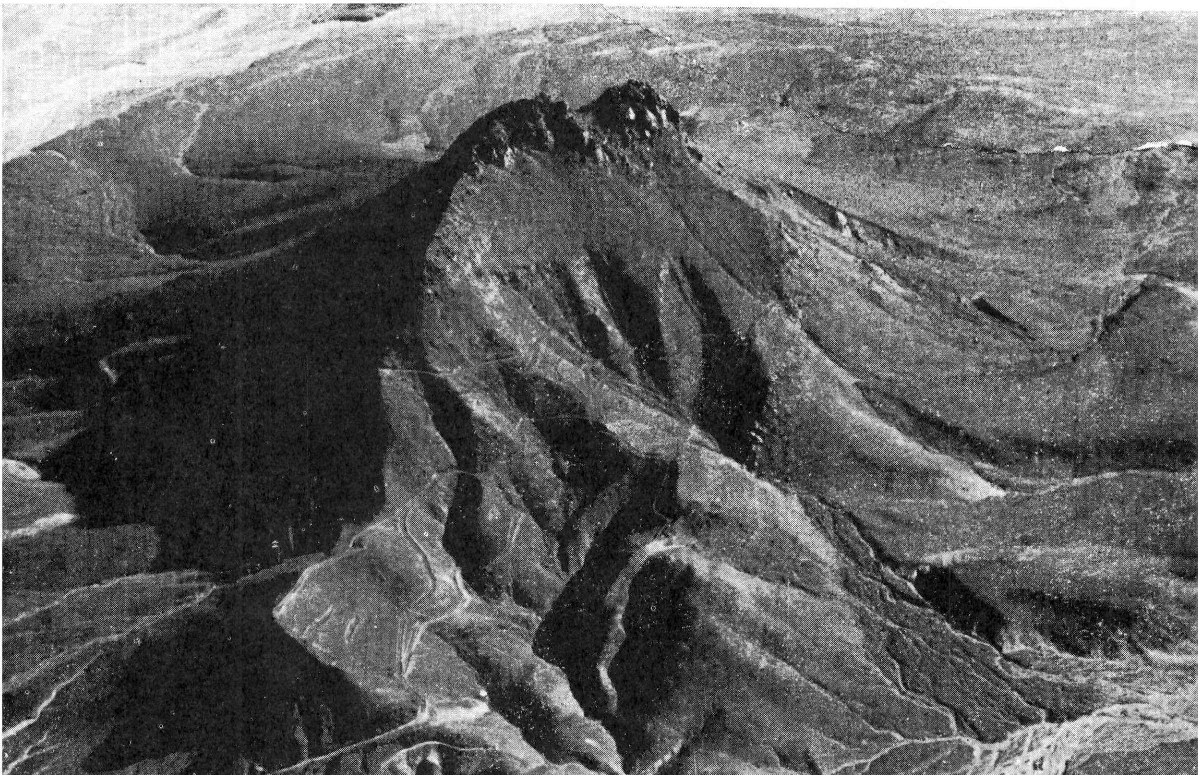
الحياة الاقتصادية في موريتانيا

عندما زرت موريتانيا لم أكن أتصور – وان كانت لي بعض التخيلات – أن أزور بلداً غنيـاً بهذا الشكل فقيراً بهذا الشكل .. فالأرض صحراء شاسعة : كثبان من الرمل ، وجبال سوداء ، وسدر وطلح وجفاف .. محيط يصطخب بأمواجه على شاطىء طوله ٦٠٠ ك.م .. وجفاف يمتص المـاء من ظهر الأرض وباطنها ، وحيوانات تنفق دون أن يكون لها لحم .

وإلى جانب هذا الوجه الاقتصادي الـكالح ، هناك ملايين الرؤوس من الإبل والأغنام والماعز تبحث عن منقذ لها من الجفاف.. ومليارات الأطنان من الأسماك يدفع بها المحيط إلى الشاطىء الموريتاني ، ومليارات الأطنان من الحديد في تلك الجبال السوداء تدفع بها موريتانيا إلى أوروبا لتصبح طائرات وأسلحة.. تسبكها مصانع الحديد والصلب ، وهناك ملايين الأطنان من النحاس وبعض الأطنان من الذهب وجبال من الملح وطبقات من الفوسفات وهناك بعض النفط وغيره من المعادن الأخرى جعلت من موريتانيا من أغنى بلاد العالم لو عادت هذه الثروات إلى خزينـــة الدولة وإلى منفعة الشعب الموريتاني .. والسؤال : أين تذهب الثروة ؟

هذه الثروة العظيمة في شعب تعداده مليون وبعض الآلاف من البشر من الممكن أن تجعل كل فرد فيه في بحبوحة من العيش يحسد عليها .. ولكن لماذا لا يكون ذلك..؟ ولماذا لا يعود مدخول هذه الثروة بمنفعة على الشعب الموريتاني العربي ؟.

لإيضاح ذلك وجب التحدث عن كل مورد على حدة ..



جبال من الحديد تزخر بها موريتانيا وتنهبها شركة (ميفرما)

جبال من الحديد

جبال سوداء ناتئة تبطنها طبقات الحديد بعضها فوق بعض في مخزون يقدر بـ (١٠٠) مئة مليار طن .. في أحجار سوداء يقول الموريتانيون عنها بأنها تحمل ٩٤،٥٢ ٪ من أوكسيد الحديد ونتيجة للفحص الذي أجري « بدكار » عام ١٩٥١ وهذه النسبة تضارع أعلى نسبة حديد وجدت حتى الآن في أي منجم من بقاع العالم ، ولكن نائب مدير شركة (ميفرما) يقول ان الحديد نسبته في هذه الأحجار هي ٦٥ ٪ فقط .. ولعل القارىء يتساءل ما هي (ميفرما) هذه ؟

ميفرما

هي شركة غربية مساهمة فيها كل من :

فرنسا : ٢٣،٨٩ ٪ – المؤسسات الحرة بفرنسا ٢٢،٤٢ ٪ – شركة فرنسا للبحث الجيولوجي ٩،٤٩ ٪ – انجلترا ١٩ ٪ – ايطاليا ١٥،٢٠ ٪ – شركة ألمانية ٥ ٪ – موريتانيا ٥ ٪

وقد تأسست هذه الشركة عام ١٩٥٢ ولكنها لم تبدأ العمل إلا عام ١٩٥٩ – ١٩٦٠ وذلك بتمويل من المصرف الدولي .. وعقدت اتفاقية مع موريتانيا التي كانت آنذاك تحت الاحتلال الفرنسي للتنقيب عن الحديد وتصديره وقد وقع الاتفاق يوم ٢٤ من اكتوبر ١٩٥٩ أي قبل استقلال موريتانيا بقرابة العام .. وأصبحت (ميفرما) بذلك الشركة الوحيدة التي يحق لها البحث عن الحديد في كامل التراب الموريتاني ولمدة يقول الموريتانيون أنها تنتهي في عام ٢٠٣٠ م أما نائب مدير الشركة فيقول انها لمدة ٣٠ سنة أي تنتهي عام ١٩٨٩ م ، والحقيقة

أن المدة غير معروفـة بالنسبة للموريتانيين ولكثير من المسئولين .. والاتفاقية غير واضحه وحتى عندما سألنا عنها في إدارة الشركة اعتذر المدير قائلاً : انهـا غير متوفرة حاليـاً ولكنكم تستطيعون الحصول عليهـا من الحكومة الموريتانية .. وسألنا بعض المسئولين الموريتانيين فلم نجد عندهم لهذه الاتفاقيـة علماً ولا دراية .

ولقد وقعت هذه الاتفاقية في ظروف لم تملك فيها موريتانيا زمام أمورها فالفرنسيون هم الذين سهلوا لهذه الشركة — التي تعتبر فرنسية — عمليـة البحث والتنقيب ... أما عن نصيب موريتانيا فيقولون أنه ٥ ٪ على أساس أنها مساهمة بهذا القسط .. وعندما سألت نائب مدير الشركة قال : ستوزع الأرباح بعد ١٥ سنة أي بعد خصم النفقات التي هي حسب رأي نائب المدير باهظة ، وإذا بقيت هناك أرباح فإنها تقسم على الأسهم .. « ثم تراجع وقال ان موريتانيا تأخذ ٥٠ خمسين في المئة وتقسم الـ ٥٠ ٪ الأخرى بين المشتركين » .. والذي يجب أن يفهمه القارىء هو أن نصيب موريتانيا ضئيل جداً وان إعادة النظر في هـذه الاتفاقية أصبح ملحاً وأصبح الشعب الموريتاني يتحدث بمرارة عن هذه الاتفاقية المجحفة حتى ان حزب الشعب في مؤتمره الأخير نادى كثير من الأعضاء فيـه باعادة النظر في اتفاقية (ميفرما) واطلاع الشعب على بنودها ..

العمال وبخس الأجور

وكما بخست شركة ميفرما حق الحكومة الموريتانية بخست أيضاً حـق العامـل الموريتاني حيث يشتغل بهذه الشركة ٤٢٧٤ عاملاً منهم ٢٣٣٠ عاملاً موريتانياً و ٢١١ عاملاً أفريقياً و ٧٣٣ عاملاً أوربياً منهم ٨١ فنياً .. وبالرغم من أن العامل الموريتاني يشتغل نفس العمل الذي يشتغله بقيـة العمال الآخرين باستثناء الفنيين منهم فهو يتقاضى راتباً أقل من العامل الافريقي بمقدار ٤٠ ٪

ويتقاضى العامل الافريقي راتباً أقل من العامل الأوربي بـ ٤٠ ٪ إلى جانب أن العمال الاوربيين يتمتعون بمساكن أنيقة مكيفة الهواء ، أما العمال الموريتانيون فإنهم يسكنون قرب المنجم في أكواخ وخيام .

ونتيجة ذلك قام العمال الموريتانيون بعدة اضرابات مطالبين بالمساواة وإعطائهم السكن اللائق ، وكان أطول هذه الاضرابات الاضراب الذي أعده العمال في العام الماضي ١٩٧١ في سبتمبر واستمر ٤٥ يوماً أنهى بعدها العمال اضرابهم بعد أن تحصلوا على بعض الوعود التي لم تتحقق منها زيادة الأجور والمساكن ، ولقد فصلت منهم مجموعة كبيرة .. وقد حاول العمال إعادة نفس الاضراب في موعده هذا العام ولكنه فشل نتيجة لطرد الشركة لـ ١٥ خمسة عشر عاملا اتهموا بأنهم يحرضون على الاضراب ، وعندما وجهت سؤالاً إلى مسئول في شركة ميفرما عن سبب الاضرابات أجاب : « بأنها تخص مشاكل العمال مع نقاباتهم وان العامل الموريتاني يتقاضى أجراً أكثر من أجر الوالي » .

وتصدر شركة « ميفرما » حديدها من المنجم ببلدة « الزويرات » إلى ميناء (نواذيبو) على المحيط الأطلسي عن طريق خط حديدي يسير في طريق متعرج تفادياً لدخول منطقة الصحراء التي يستولي عليها الأسبان حالياً حيث يحمل في قطار به ١٥٠ مئة وخمسون عربة يسير مرتين في اليوم .. ويصدر الحديد إلى الدول المشتركة أولاً ثم إلى اسبانيا وبلجيكا .

والموريتانيون يقولون ان طائرات الميراج الفرنسية الصنع هي حديد عربي موريتاني ، وفي الميناء الخاص بالشركة شاهدنا جبالاً من الحديد نقلت من محلها بالزويرات لتنقلها إلى فرنسا بواخر معدة لذلك ، وسألنا كما يتساءل أي مهتم : من الذي يشرف على الكميات المصدرة ؟؟ ورد المسئول في الشركة أن موريتانيا تراقب التصدير ونحن لا نستطيع أن نغشها الميزان ولا نبخسها الثمن !! وسرنا إلى نقطة المراقبة الموريتانية «الجمارك» فلم نجد بها أحداً ، ربما خرجوا في جولة

داخل المدينة ..

النحاس

وإلى جانب الحديد .. هناك النحاس وقد اكتشف بكميات كبيرة وخاصة في منطقة (اقجوجت) وقد كان النحاس يستخرج من قبـــل شركة فرنسية ولكنها تخلت عن العقد بعد الاستقلال بحجة أن التـكاليف باهظة ، وتكونت شركة أخرى تسمى شركة (سوسيتا) مهمتها استخراج النحاس تملك موريتانيا منها ٢١،٩١ ٪ وإلى جانب ذلك فنصيب موريتانيا من النحاس أوفر حظاً من نصيبها من الحديد ، ولو أن الكميات المستخرجة قليلة نسبياً .. وإلى جانب النحاس يستخرج من نفس المنجم كميات قليلة من الذهب هي بعض المستخلصات من معدن النحاس ..

الملح .. والقوافل التجارية

ولعل ملح موريتانيا هو من أجود أنواع الملح في العالم..فهو يوجد على شكل جبال كالمنـــاجم يقطع الأهلون بفؤوسهم منه قطعاً يحملونها على ظهور الجمـال حيث تسير قوافل إلى البلدان المجـاورة .. ولا يزال أصل تكوين هذا الملح غامضاً ..

وتوجد هذه الملاحات في كل من منطقة (الترارزة) ومنطقة (نترت) شمال نهر السنيغال ملاحة (كدية ايجيل) وهي أهم الملاحات ، وملاحة (تيدنكوت) قرب روسو ويقدر الانتاج السنوي بين (٥٠٠٠ - ٦٠٠٠) طن .. ولو استغل هذا المعدن بطرق عصرية لأصبح دخل موريتانيا جيداً خاصة وان المنـــاطق المجاورة في حاجة إلى هذا الملح .

النفط وشركة ب.ب

منذ أن استقلت موريتانيا منحت عدة امتيازات لشركات أجنبية للتنقيب عن النفط ولكن جميعهـــا لم تتوصل إلى نتائج مشجعة باستثناء شركة ب.ب الانجليزية التي طردناها من هنا ، قيل انها عثرت على البترول في منطقة (وادان) في هذا العام .

السمك .. والاحتكار الاسباني

يعتبر الشاطىء الموريتاني من أغنى شواطىء الدنيـا ثروة سمكية ، والذي يقف على شاطىء المحيط يلاحظ الأسماك الكثيرة التي تقذف بها الأمواج لأنهـا عجزت عن مسايرة الحياة داخل المحيط اللجب، والصيادون لا يتركون شباكهم تبيت منشورة في الماء في انتظار الصيد ، ولكنهم يرمون بها ويتركونها لساعات قليلة ثم ينتشلونها فإذا بها مملوءة سمكاً .

وعلى هذا الأساس عرف الشاطىء الموريتاني السرقات السمكية، فالشركات البحرية الايطالية واليونانية واليابانية كثيراً ما تدخل المياه الاقليمية في غفلة من الرقباء لتسرق السمك الموريتاني ، وأثناء اقامتي في « نواذيبو » كان يقيم في الفندق مجموعـــة من البحارة الايطاليين قبضت عليهم الشرطة البحرية وهم يسرقون السمك وقد طلبت الحكومة الموريتانية مبلغاً قدره أربعون مليوناً من الفرنـكات كتعويض عن هذه السرقات ومقابل فك أسرهم أي مـــا يعادل (٤٥٠٠٠) دينار ليبي تقريباً ..

وفي عام ١٩٧٠ استطاعت شركة اسبانية أن تنشىء معملاً لتصنيـع السمك وتعليبه وتصديره إلى الخارج وأن تحوز على حق صيد السمك في كل الشاطىء الموريتاني .. وعندما تحدثت إلى مدير الشركة قال : ان اسبانيا لا تسعى إلى

الربح ولكن لتساعد موريتانيا وهي بذلك أنشأت هذه الشركة برأسمال من المعهد الوطني للصناعة مقداره خمسمئة مليون فرنك أفريقي ، والشركة بعد أن ترجع نفقات الانشاء تعود إلى موريتانيا وتصبح شركة موريتانية ..

وهنا قلت له :

ترى متى ترجع أسبانيا – في تقديركم – ما أنفقته على الشركة ..؟؟

أجاب :

بعد عشرين سنة إذ أن النفقات قد تصل إلى اثني عشر مليون دولار ..

وهنا قلت له :

ولكن بعد عشرين سنة ستصبح هذه الآلات غير صالحة للاستعمال .. وهنا لا تستفيد موريتانيا من عودة الشركة لها بل عليها أن تنشئها من جديد . فضحك المدير وهز كتفه ولم يعلق . وهذه الشركة تصدر الأسماك إلى كل من (ألمانيا الغربية وفرنسا وهولاندا ولكسمبورج وإيطاليا وأسبانيا وبولندا وهنغاريا والكنغو كنشاسا (زائير) ..

والشركة على حد قول مديرها تصدر حوالي (١٠٠٠٠)عشرة آلاف طن.. ولكن عندما زرنا الميناء وتحدثنا إلى مفتش الميناء الفرنسي قال إن عام ١٩٧٠ دخل الميناء من الأسماك (٥٢٠٠٠) اثنان وخمسون ألف طن وفي عام ١٩٧١ دخل الميناء خمسون ألف طن ، ويدخل الكثير من السمك عن طريق غيرطريق الميناء لأن هناك شركات صغيرة لها موانئها الخاصة ، ولهذا يجب زيادة ٢٥ ٪ من تقديرات السمك أي أن عام ١٩٧١ بلغ دخل الأسماك (٦٢٥٠٠)طن لنفرض أن نصفها فقط هو من نصيب الشركة الاسبانية إذن يمكنها أن تصنع (٣١٢٥٠) طناً . وعلى كل حال فتصريح المسئول بها بأنها تصدر عشرة آلاف طن فقط (فيه قولان)..؟

ومن غريب الصدف أن الموريتانيين العرب لا يأكلون السمك إلا نادراً ولهذا

يفتقدون عنصراً مهماً من الغذاء كان من الممكن أن يساعدهم على توفير الغـذاء الكامل .

الزراعة

لم تكن موريتانيا بلداً زراعيـــاً بالمعنى المتعارف عليه في الدنيا فهي بلد صحراوي يعتمد على الرعي وتربية الماشية .. ولكن هناك بعض الزراعـــة الموسمية كزراعة القمح والشعير والدخن والذرة ، إلى جانب الاستفـــادة من الغابات الطبيعية كأشجار الصمغ والطلح .... ولعل أهم منطقـــة زراعية في موريتانيا هي المساحة من الأرض الممتدة على شريط ساحل نهر السنغال ، فلقد أقيمت هناك عدة مشاريـع زراعية .

الصين .. والارز .. والشيوعية

وعلى ضفة النهر قرب مدينة (روسو) (القوارب) أقامت الصين مشروعاً لها بسهل «انبوري» الذي كانت تغمره فيضانات مياه النهر. فلقد أقامت سداً على النهر لمنع مياه الفيضانات من غمر السهل على طول (١٢٨٠٠) م . وأقامت تسع مضخات لضخ المياه .. ومهدت (٤٠٠٠) أربعة آلاف هكتار زرعتها أرزاً، منها (٨٠٠) ثمانمئة هكتار مزرعـــة حكومية ، أما الباقي فلتوزيعه على المزارعين .. وقد أعطى الهكتار الواحد ثلاثة أطنان ونصف طن من الأرز . ويتم تسويق الأرز من قبل الشركة الموريتانية للاستيراد والتصدير حيث يباع الكيلو للشركة بمبلغ (٣٨) فرنكاً وتبيعه هي بمبلغ (٤٢٫٥) فرنكاً للمستهلك.. وحراثة الأرض وزراعتها وحصد المحصول يقوم آلياً ، أما العمال فيستخدمون في تنقية المحصول من الأعشاب الضارة إذ يشتغل في المشروع ما بين (٧١-٢٠٠)

عامل يرتفع العدد في موسم الزرع وينخفض بعد ذلك .

وإلى جانب ذلك هناك مئتا هكتار لزراعتها بالدخن والذرة البيضاء .. وإلى جانب المشروع تقوم الصين بتوزيع كتب (ماو) بين المواطنين حتى إنني زرت بعض الخيام في الصحراء فوجدت كتب الشيوعية الحمراء سبقتني إليها .. وتحاول الصين عن طريق مشروعها الزراعي هـذا أن تنبت الأرز والشيوعية وتركز على العمال والطلاب .

والإسلام كقوة فعالة في المنطقة يحول دون اعتناق الشيوعية في هذا القطر الشقيق ، ولكن لا يخلو أي بلد من ضعاف النفوس وضعاف العقيدة .. وهنا وجب على الدولة أن تنتبه إلى الخطر الشيوعي الذي يتسلل كالظلام في جنوب موريتانيا . كما أرى أنه من واجب الدول العربية مساعدة موريتانيا اقتصادياً حتى تستطيع أن تقف بصلابة في وجه الاستغلال الغربي والشرقي .. ولكن ، أين العرب ؟؟ فالعراق هو الآخر يصرف آلاف الدينارات في موريتانيا ، دون أن يستفيد المواطن الموريتاني منها شيئاً، فجميع هذه الآلاف تصرف على شراء وطبع خطب (ميشيل عفلق) وتوزع على كل من يمر بجانب السفارة أو لا يمر ولقد حدثني أحد الموريتانيين قائلاً :

نحن لا نخاف من الشيوعية فالإسلام يعصمنا منها، ولكن المؤسف له أن العراق يصرف ملايين الدولارات على طبع كتب (عفلق) وتوزيعها .. والذي يوزع منها في موريتانيا لو وضع على فلسطين لأظلهـا ولو بنيت به مدارس للتعليم لاستفادت موريتانيا من شقيقتها العراق ، والذي قد يغيب عن ذهن العراق أن الموريتاني يعتز بعروبته وإسلامه ولكنه لن يكون بعثياً أو شيوعياً ..

سد قويلد .. ومشروع القمح

وفي عام ١٩٥٧ أنشأت فرنسا سداً على نهر صغير متفرع من نهر السنيغال

يصب في بحيرة واسعة تجف في فصل الجفاف وتمتلىء في فصل الأمطار عند الفيضانات بمنطقة (أركيز) . وهذا السد يحبس خلفه كمية من المياه تكفي لري السهل المنبسط لمرة واحدة . وهذا السهل مساحته حوالي (٤٠٠٠) أربعة آلاف هكتار وهو صالح لزراعة القمح ويكفي أن الهكتار الواحد يعطي ١٢ طناً من القمح..ويعيش حوالي السهل مجموعة من البدو في خيامها تستغله لزراعة الذرة والقمح بكميات صغيرة .. وقد علمنا أن الجمهورية العربية الليبية تعد الدراسات الآن لإقامة مشروع لزراعة القمح بهذا السهل .

النخل .. والقيطنة

وموريتانيا شهيرة بالنخل وأنواع التمور، إذ تقدر أعداد النخيل في موريتانيا بقرابة (٥) خمسة ملايين نخلة معظمها في الشمال .. والموريتانيون يعطلون أعمالهم في شهر أغسطس وجميعهم يذهبون لمناطق النخل حيث يضربون خيامهم في ظلالها ويجنون الرطب الجني ويسمون ذلك (القيطنة) ويقدمون لك التمر قبل الطعام كنوع من الإكرام . وعلى ذكر عطلة هذا الشهر أرى أن تعطيل المصالح الحكومية والمكاتب والدوائر لمدة شهر كامل فيه الكثير من التعطيل لمصالح المواطنين .. الأمر الذي يؤخر موريتانيا عاماً كاملاً في كل اثنتي عشرة سنة تقطعها أمم الأرض ..

فمن الممكن أن يستفيد كل موظف بإجازة شهر في العام كما هو متعارف عليه ولكن يتم بالتناوب بين الموظفين . لا أن يعطلوا جميعاً في شهر واحد وتقفل الدائرة .

الثروة الحيوانية

وإلى جانب الزراعة والمناجم هناك الملايين من رؤوس الأغنام والماعز والإبل

والبقر جميعها تسوح في مراعي الجنوب والشمال غير أن الاعتماد في تربيتها على مياه الأمطار غير الثابتة يجعلها عرضة للفتك والموت كما حدث في الأعوام الماضية .

الصناعة

لم تقم بموريتانيا حتى الآن صناعات بمفهوم الصناعة العصرية .. فلقد جبتها من شمالها إلى جنوبها فلم أجد مصنعاً واحداً موريتانياً مقاماً على قطاع من القطاعات الزراعية أو الثروة الحيوانية .. إذا ما استثنينا مصنع السجاد اليدوي (بنواكشوط) وهذا تقوم به مجموعة من النساء الموريتانيات حيث يقمن بنسج بعض السجاد على أنوال بدائية ومن الممكن تطوير هذه الصناعة لو وفرت للمشتغلات الآلات الحديثة ..

كما كان من الممكن أيضاً أن تقوم مصانع وطنية لتعليب السمك وحفظه ، وأخرى لتعليب اللحوم وأخرى لصناعة الأحذية .. كما كان من الممكن أن تقوم مصانع لطحن الغلال وأخرى لتعليب التمور ..

وتشاهد في السوق الموريتاني عشرات الناس يقومون بتطريز الدراعات وهي الجبة التي يلبسها الموريتانيون ، وآخرون يقومون بنقش الفضة وغيرهم بنقش النعال من الجلد .

وهذه الصناعات اليدوية من الممكن تطويرها لو وجدت الرعاية ......

وأخيرا ..

هذه موريتانيا الاقتصادية البلد الغني الفقير والشعب العربي المسلم نقلنا صورتها هنا بما فيها من جوانب مضيئة وأخرى قاتمة .. ليقف المواطن العربي على ما يدور في وطنه ..

وقبل أن أختم هذا المقال أريد أن أنوه بالخطوة العظيمة التي أقدمت عليها الجمهورية العربية الليبية وجمهورية موريتانيا الإسلامية لإنشاء مصرف مشترك برأسمال عربي من البلدين يكسر الاحتكار المصرفي الذي يهيمن عليه مصرف (بي. أي . أ. أو)الفرنسي والذي يقال بأن ٤٨٪ من رأسماله يهوديفرنسي.. إذ أن هذا المصرف يمثل دور المرحوم (بنك دي روما) الذي كان عندنا ذات يوم لا أعاده الله ..

موريتانيا روضة من رياض الشعر

حلقات من السمر تعقد في ضوء القمر حول كؤوس الشاي ، تجمع الشباب والفتيات يتحدثون شعراً ، فيفهم الفتى قصد فتاته . ويتغاضى الكبار عن هذه المجالس إذ أنها لا تتجاوز اللهو البريء ، والقصيدة والبيت من الشعر ، تروى أو يذكر في المجلس ، فيرد المعنى بقصيد أو بيت قد يكون من نتاج الساعة ..

ويتفرق المجلس في ساعة متأخرة من الليل وكل علقت بحفيظته الأشعار التي ذكرت ، والأبيات التي قيلت فيتناقلها الرواة .. ويعقب عليها الشعراء،فتصبح قصائد ومعارضات هي نزهة السمار ، في بيوت الشعر في ليالي البيد المقمرة .

يدفعون المهر شعراً

وإنني لأذكر ما حييت ، ليلة سمرت فيها مع فتية من أهل موريتان — كما يسمون موريتانيا ترخيماً — وقد صفا الجو وراق وتوسط البدر تماماً ليلتنا الصافية ، ودار المجلس حول الشاي بالنعناع ، كانت تديره إحدى الفتيات ، وقد لبست ملحفة سوداء ، كما لبست رفيقاتها مثلها فأصبحت وجوههن تلوح على نور مصباح الجاز بيضاء في سواد الملاحف مؤكدين حقيقة القول : « والضد

يظهره الضد » .

ودارت علينا كؤوس التاي الأخضر المنعنع، والشباب يذهب بهم الحديث كل مذهب ، ويتشعب بهم إلى كل مشعب ، فرحين بضيفهم القادم من الشرق ، تارة يسألون وتارة يناقشون ... حتى برد الليل ، وأصبح معين الكلام كأنه أوشك على النزوح ، فقام أحد الشباب مقترحاً المباراة في الشعر ، فوافق الجميع وكنت مع الموافقين لأستمع إلى جيد الشعر العربي يلقى في ناد من البدو هم بعض من أهلي في صحرائنا الشاسعة .

وانقسم الجمع قسمين .. كل قسم يتمنى أن يكون في السبق المجلي، وانقسمت الفتيات ضمن من انقسم ، فكان من قسمنا فتاة سمراء ما ظننت أنها في الشعر بمثل ما اتضح لي بعد ذلك ..

وكانت طريقة اللعبة أن يسمي قسم فيما بين مجموعته اسم فتاة ويسمي القسم الآخر اسم فتى دون أن تعلم المجموعة الأخرى بالمسمى ولا بالمسماة وتتقدم مجموعة الرجل من مجموعة المرأة خاطبة يد ابنتها وتطلب المجموعة الأخرى مهر ابنتها.. ويكون المهر قصيداً من الشعر وقد لا يعجب أهل الفتاة بالمهر ، فيلقى قصيد آخر وحين الرضى يسمي فريق الفتى فتاهم وفريق الفتاة فتاتهم .. وكثيراً ما تكون الفتاة في المجلس والفتى من فتيان المجلس ، فيكثر الضحك ويحدث الانشراح ، وتستمر اللعبة .

ولقد تقدم الفريق المقابل من فريقنا يخطب فتاتنا التي اخترناها فيما بيننا وتقدم زعيم الفريق دافعاً مهر ابنتنا بقصيد من الشعر الحساني قائلاً :

بنت الزبير انا نختار ملقاها — يا كان اجحدتو
فرض انقولو واظريكه خير — انقولو راعيني قلتو

•

ما رتها ذانا في الحيّه — تاري مربوط على يديه

من كيف اني ريت أكميه جا واحد مافت عرفتو
مكنتو منهنا مـــا بيـه عني عن راسي سوّلتو
غير ألاّ فيه الخفيـــه من اكلام (ايكيبر) شفتو
(وايكيبر) مرتو (صفيه) (وصفية) تعرف (عيشتُو)

« بنت الزبير »

ومعنى القصيد أن الشاعر يختار أن يلتقي بعـائشة بنت الزبير ويحكي أنه مرة كان يرعى الإبل ، ولم تكن عنده سجائر لدرجة أن عينيه لا يرى بهما شيئاً من شدة احتياجه « للدخان » وأخيراً وجد عقب سيجارة « كمية » وأراد أن يدخنها فقابله شخص فبسرعة أعطاه إياها رغم أنه لايعرفه أبداً ولم يلتق به من قبل : والسبب أن هذا الرجل يشبه شخصاً أخر يقال له (ايكيبر) وايكيبر هذا زوجته صفية صديقة عائشة بنت الزبير التي يحبها الشاعر .. وما أن أكمل صديقنا قصيده حتى رضينا به مهراً لفتاة فريقنا ثم ذكر كل فريق فتاتـــه أو فتاه .. وكانت فتاتنا تلك التي تدير الشاي ، أمـــا الفتى فهو أحد الشباب في فريقنا . وفي المرة الأخرى اخترنا نحن الفتى واختار الفريق المقابـل الفتاة ، وتقدمنا للخطبة وكانت الفتاة السمراء التي في فريقنا هي التي تقدمت لدفع المهر شعراً وألقت قصيداً بالشعر الحساني قالت فيه :

نبغيني كانـ بغيتيني ونكرهني كان اكرهتيني
واحزينك هو واحزيني شدوا ذا لاوان عليه
وعلى اقفا يدك لا درتيني نزرقني شور قفا يديه

●

وكان بغيتيني بالمرّاد يغلبني ذاك علي
والا ما عينك فيّ زاد حق أنا ما عيني فيّه

●

ومعنى القصيد ، يقول الشاعر لحبيبته : أحب نفسي إذا أنت بادلتها الحب، وأكرهها إذا كرهتها ، والشيء الذي يحزنك هو الذي يحزنني.. وإذا ما جعلتني على قفا يدك .. أضع نفسي أيضاً على قفا يدي .. وإذا ما أحببتني أيتها الغزال أزداد بذلك حباً لنفسي وإذا ما كرهتني أكره نفسي أنا الآخر ..

وما أن أكملت زميلتنا قصيدها ورضي الفريق المقابل بالمهر حتى سمى كل فريق صاحبه فكان من الصدف أن فتاتنا التي تقدمت بالمهر ، هي التي أسماهـا الفريق المقابل وقد كنا اخترنا فتى من نفس الفريق .

وانبرى ذلك الفتى في الجولة الأخرى قائلاً :

يا حد ما ساند فلسطين يساندهـا حقيقيّـة
ويكافح عين تدق فعين جهريّة ما هي سريّة

●

النفرية مـا هي كلمات ينقالو في المناسبات
ولا هي خطب واحتفالات التأييـد التقليديـة
وكثرة لكلام وليذاعات اللي حد انهـا ذكية
والتصفاق ومعطى لاصوات باطل وتظهـار النفسية
وانعيت المشفة فومات الحرج وادفين النيـة
والرسايـل والبيـانات المكتوبـة والمقريـة
أفهم لك عن ذافر الفات لو منفع في التسويـة

●

والشاعر يقصد ان قضية فلسطين لا تحلهـا الخطب الرنانة والاذاعات والصحف والبيانات وإنما جميع هذا لا يفيد شيئاً .. غير أن زعيم فريقنا أراد

أن يخرج من الشعر الحساني إلى الشعر الفصيح مندفعـــاً يتغنى بشعر لشاعر موريتاني قديم قائلاً :

بعد الهدو يمين (الضرع)اسرالي طيف احل ببالي كل بلبال
أسرى فنبهني وهنا (بتيرس) من (بارين)طيفقطوفالمشيمكسـال
زارتك غانش والجوزاء جانحة والليل ملتف أرواق واذيال
زارتومن دونها شم الجبال واو عاث الرمـال ولماع من الآل
وكل مغبرة الأرجاء طامسة آل اعلام حفت بأوحال وأهوال

●

ثم تلجلج في القصيد وخانته الذاكرة فقامت الفتاة التي تدير الشاي مكملة إياها :

أما وكل خلوب اللحظ ساعدها والساق غصا بدملوج وخلخال
لفي الفؤاد هوى مني لغانش لا يبلى وكل جديد غيره بـال
مل المعاتب فيه من معاتبتي فكف عني ومل العذل عذالي
وطالمـا سمته كتماً فنم به دمعي وأخبر عنه مخبر الحال
دعني إليها أجوب البيد ممتطيـاً بزلاً تواصل ارقالاً بارقـال
أدنى بها النازح النائي وأسبحها بحر الدجى وبحور الآل في الآل

●

وتيرس التي ذكرها الشاعر في قصيده هي أرض منبسطة صحراء في شمـال موريتانيا تقع بين الزويرات وبئر أم القرين أما (بارين) فهو بئر هناك ..

واستمرت سهرتنا الطيبةبين شعر حساني وآخر فصيححسنإلى ساعة متأخرة من الليل حيث انفض الجمع على لقاء في الليلة الأخرى .. وفي كل دار منتدى وفي كل بيت تقام سوق لعكاظ ..

الأطفال .. والشعر

وفي صباح الغد وأنا مأخوذ بروعة الليلة الماضية وجودة الشعر وحسن الأداء مررت بالسوق فإذا بصبية يلعبون .. فتقدمت منهم وسألتهم :

هل تحفظون الشعر ؟

فقال أحدهم :

بغيت الشعر الحساني ؟

قلت : نعم .

قال : حانيني ظرك نكتبهولك في تاغط ..

أي انتظرني قليلاً لأكتبه لك في ورقة ، وغاب عني قليلاً ثم حضر وبيده ورقة يقول فيها :

ما خالق كون الله يبان	نعرف هذا لكراع ازمان
ما فيه احفا واهلو بيظان	واتقد على حــد اتغليه
وقتن عاقب ذاك بعيمان	راد الله عني خظت عليه
الحقت ازمانو ذاك امنين	كنا فيــه امشا ويهاليه
مشا ونزلوه اهل اخرين	ما هم ذوك اللي كانوا فيه

ومعنى القصيد أن الشاعر يقول : إنني أعرف هذه (لكراع) وهي جمع (قرعاء) وهي الأرض المنبسطة التي ينمو بها السدر – منذ زمان – وكانت أرضاً رخوة وأهلها (بيضان) أي من العرب البيض ، وهؤلاء الناس يحببون منزلهم للآخرين . وأراد الله أن أزور بعد سنوات ذلك المحل فإذا بأهله قــد رحلوا وسكنه أناس آخرون لم يكونوا على شاكلة أهله الأسبقين .

فقلت للطفل :

وهل تحفظ شعراً فصيحاً ؟ فانبرى يقول :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قلت له : لا ، ارو لنا من الشعر الذي قيل في موريتانيا .

قال :

في الجماهير تكمن المعجزات ومن الظلم تولد الحريات

واستمر في هذا القصيد حتى جاء على آخره . وتركت الطفل الشاعر . .

الأمثال الشعبية

ومررت بشيخين يتباريان في لعبة أرضية شبيهة بالشطرنج وقفت أتأملها ، فقال أحدهما لصاحبه الذي قتل أحد جنوده يتوعده :

« اللي عظك ما عظيتو يقول أنك بلا سنين » .

ومعناه أن من آذاك ولم تؤذه يقول إنك عاجز عنه . وهو نفس المثل الشعبي الذي يقال عندنا : « اللي عضك فكرك في اسنونك » . فرد صاحبه عليه قائلاً في مثل آخر :

« اللي ما اسمع لك ما تنفعه » .

ومعناه الذي لا يستمع لنصحك لا تبدي له النصيحة .فتململ صاحبه في محله وتوكأ على مرفقه .. متحيناً فرصة انشغال صاحبه في طرف الرقعة متعدياً بإحدى قطعه دارة أو دارتين وهو يقول :«يصوم من القوم والا ما عليه اللوم».

ومعنى المثل بمعنى مثلنا القائل :

« دير كيف جارك والا قلع باب دارك » .

وتنبه الجماعة لوجودي فسلموا وقال أحدهم :

« الفرو فيه جلد عجل » .

والفرو هذا مجموعة من جلود الضأن تخاط في بعضها ويتخذ منهـا غطاء للأسرة في موريتانيا . وإذا كان في الفرو جلد من جلود البقر يكون واضحاً أنه من غير فصيلتها .. ومعنى المثل : أن هناك غريباً بيننا فاصمتوا » والمثل كما نقول نحن :

« البحر فيه كلب » .

فتظاهرت بأني لم أع ما سمعت وودعتهم ومشيت ..

الطرب

وقبل سفري أعد لي الإخوان حفلة طرب على الطريقة الموريتانية فجلس النساء والرجال ، تدار على القوم كؤوس التاي الأخضر المعطرة بالنعنـاع ، ووقفت طفلة صغيرة لم تتجاوز التاسعة تغني بصوت رخيم والمجموعة تجيبهـا وهي تقول :

لا ننسى وأنت لا تنسي ذوك الأيـــام الجميلة

●

مذكرها لي السبحان اليا خطرت ما هي مسحيلة
اخديد احمر فيه الشيطان بلا كحله وبلا نيله

●

لا ننسى وأنت لا تنسى ذوك الأيـام الجميلة

وأشعاراً أخرى تغنت بها تلك الفتاة الصغيرة بصوتهـا الملائكي العذب في سكون الصحراء المهيب ، تحت ضوء القمر . وانطلق في نوبـة أخرى

شاعر غنـائي يعزف على ربابة بحركات من اصابعه تمس أوتار القلب .. وتدغدغها ..

وتغني فيشعر المرء أنه في متاهات من الاحساس اللامتناهي والتفاعل العميق الصامت ..

وتغني بشعر موريتاني قديم لشاعر يقال له : (حرمـة الله بن الحاج ابن سيدي الحسن) .. والمغني دائماً ما يبدأ غناءه بقوله :

(لا إله إلا الله) ثم قال :

إلى متى تظهر السلوان والفكر   تعلو بقلبك أحياناً وتنحدر
ما أنت أول من أفنى تجلده   وصبره دعج العينين والحور
لو مر أهيف بجدول على حجر   صبا له إن رآه ذلك الحجر
هيف الخصور خدال السوق قد صرعت
قيساً وقيسا وغيلانـاً وما انتصروا
جرعن عروة كأس الموت قبلهم   وقال فيهن ما قد قاله عمر
عراك منذ شهور مـا ألم بهم
رد مثل ما وردوا واصدر كما صدروا
لا يصدر الطرف عن جيد منعمة   إلا امرؤ لم يكن في وجهه بصر
واجعل سريرك رحلاً فوق يعملة   من شدة الخطو لا يبدو لها أثر
سابر براحاً عليها كل هاجرة   وادلج كما تدلج الجوزاء والقمر
حتى تئوب غزلاناً تسامرها   يا حبذا تلكم الغزلان والسمر
إن شاكلت كل خضرادمنة زهرا   يا حبذا الدمن اللاتي بها الخضر
ماذا تضر عروق غير طيبة   إن طاب للمجتني اثمارها الثمر

وكأن الحاضرين كان على رؤوسهم الطير إلا تأوهات يصدرونها عند وقفة ، ولحلحات يعربون بها عن استحسانهم ، إذ أن كلمة الاستحسان في موريتانيا هي:

أح ... أح ...

ويتعجبون أيضاً بكلمة :

زين ... زين ...

هكذا قضينا ليلة من ليالي السمر الموريتاني بين العود والوتر هي حقيقة ستبقى في ذاكرتي ما دامت لي ذاكرة يحفظها رأس ، أحمله في أرض يسكنها بشر ..

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

للمؤلف

بين نجوع البادية طبعتان
عشيات وادي غدو «
ريم على الغدير
فجر الذكريات
من ليالي السمر
الأدب الشعبي في ليبيا
سوف المحمودي حياته – وشعره
الفروسية في ليبيا
بين الجديد وقاره
٧ قصائد ثورية
وداعاً للرحيل ..
من ظفار إلى الساقية الحمراء
مشاهدات صحفي « الجزء الأول »

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ٥٦٢٠ - هاتف ٢٩٣٠٤٢

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ٥٦٢٠ - هاتف ٢٩٣٠٤٣

الثمن ٤ ليرات لبنانية
أو ما يعادلها